بلاغة الخبر في فواتح السور

في

خطاب سيد البشر ﷺ

✍ إعـــداد الدكتورة

مفيدة محمد حسن عبد الرحيم

المدرس بقسم البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

E. mail : mofida.hassan@azhar.edu.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الملخص :

بلاغة الخبر في فواتح السور في خطاب سيد البشر ﷺ

إعـداد الدكتورة / مفيدة محمد حسن عبد الرحيم

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

الحمدلله رب العالمين،والصلاة والسلام على أكرم المرسلين،سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين. **وبـعد**

إنَّ أعظم ما خصّ به المولى –سبحانه وتعالى–الأمة الإسلامية كتابه المعجز، الذي أنزله على رسوله ومصطفاه محمد(ﷺ)، فكان دليلاً على رسالته، هاديا لأمته إلى يوم الدين. والبحث عن الأسرار البلاغية في القرآن الكريم من أشرف وأرقى البحوث التي ترشدنا إلى الإعجاز القرآني الذي لانهاية له، إذ كان ولا يزال إلى يوم الدين معينا لا ينضب، لكل من سلك فيه طريقًا للبحث عن أسرار إعجازه، وكشف دقائقه، وبلاغة أساليبه.

ولما كانت مطالع الكلام وفواتحه من مواضع التأنق والإبداع في الكلام،وكان الخبر الغرض الأساسي من الخطاب، لذا جاء موضوع هذا البحث (بلاغة الخبر في فواتح السور، في خطاب سيد البشر(ﷺ)، وقد خصصته فيما ورد من أخبار خوطب بها الرسول (ﷺ)، من أول آية في السورة، بما يدل على أهمية الخبر والعناية به، والذي أخذ أهميته من وجهين: الوجه الأول: كون الخبر واقعًا في صدر السورة وفاتحتها، والآخر: كونه خطابًا من المولى سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد(ﷺ)، الذي شرفه ربه وأكرمه بخطابه.

وورد الخطاب على تلك الهيئة في فواتح كل من السور الآتية: **(الأنفال ـ والفتح – والمجادلة ـ وعبس – والكوثر)**، والتي تناولت نوعين من الأخبار، النوع الأول: الإخبار عن أمور غيبية لا يحيط بها العلم البشري، أما الثاني: فهو الإخبار عن تشريعاتٍ تتعلق بمعاملات المسلمين وأحوالهم.

واعتمدت في هذه الدراسة على منهج التحليل البلاغي، بتحليل الأسلوب الخبريالوارد في فاتحة كل سورة تحليلًا بلاغيًا، بما يكشف معناه، ويدل على المقصود منه،إلى جانب تحليل التراكيب اللغوية المتممة والموضحة له، وبيان وجه المناسبة لما قبلها.

الكلمات المفتاحية: بلاغة الخبر – فواتح السور – خطاب سيد البشر.

mofida.hassan@azhar.edu.eg

Summary :

The eloquence of the news in the light of the fence in the speech of the Lord of human beings peace be upon him

Prepared by Dr. Moufida Mohamed Hassan Abdel Rahim

Lecturer, Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Sohag

Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the most generous messengers, our Prophet Muhammad and his family and companions.

), was evidence of his message, guided to his nation to the day of religion.ρThe greatest devoted to the Almighty - the Almighty - the Islamic nation, his miraculous book, which was revealed to his messenger and Mustafa Mohammed (

The search for rhetorical secrets in the Koran of Ashraf and the finest research that guide us to the Quranic miracle that is endless, as it was and continues to the day of religion inexhaustible, for everyone who took a way to search for the secrets of his miracle, and reveal its minutes, and eloquence of his methods.

As the insiders of speech and Fatiha of places of elegance and creativity in speech, and the news was the main purpose of the speech, so came the subject of this research (eloquence of the news in the light of

the fence, in the speech of the Lord of human beings (peace be upon him), has been allocated in the news of Khotob The Prophet (peace be upon him), from the first verse in the Sura, which indicates the importance of the news and take care of it, which took its importance from two sides: the first face: the fact that the news is in the front of the sura and its chapeau, and the other: being a letter from the Almighty God to His Holy Prophet Muhammad (Peace be upon him), who honored his Lord and honored his speech.
The speech on that body in the light of each of the following fence: (Anfal - and conquest - and argument - and Abs - and Kawthar), which dealt with two types of news, the first type: the news of the metaphysical things not surrounded by human science, the second: the news about legislation Relates to the transactions and conditions of Muslims
This study is based on the rhetorical analysis method, by analyzing the rhetorical method contained in the chapeau of each chapter in a rhetorical analysis, revealing its meaning, and indicating its intended purpose, in addition to analyzing the complementary and clear linguistic structures, and showing the appropriate aspect of the previous one.

Key words: The rhetoric of the news - Fatih fence - the speech of the master of humans

E. mail : mofida.hassan@azhar.edu.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وهداية للمتقين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد

فإنَّ من أعظم ما خصّ الله سبحانه و تعالى به الأمة الإسلامية كتابه الكريم، الذي أنزله على رسوله ومصطفاه محمد (ﷺ)، فجعله دليلاً على رسالته، هاديا لأمته، قال تعالى:﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾"[(١)].

والبحث عن الأسرار البلاغية في القرآن الكريم من أشرف وأرقى البحوث التي ترشدنا إلى الإعجاز القرآني، الذى تحدي بفصاحة ألفاظه، وبلاغة أساليبه، ودقة نظمه، فصحاء اللغة وأربابها، في أخص ما اشتهروا به، قال تعالي ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [(٢)]، و قوله سبحانه ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[(٣)].

وإذا "نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم، غُصْنَا منه في بحر عميق لا قرار له"[(٤)]؛ لذا فإن البحث في هذا الكتاب المعجز كان ولا يزال

---

(١) سورة المائدة: آية (١٦).
(٢) سورة البقرة :آية (٢٣).
(٣) سورة الإسراء: آية (٨٨).
(٤) المثل الثائر: لضياء الدين بن الأثير، (المتوفى: ٦٣٧هـ)،ج١/١٩٦، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

إلى يوم الدين معينا لا ينضب، لكل من سلك فيه طريقًا للبحث عن أسرار إعجازه، و دقائق ألفاظه وبلاغة أساليبه.

وبما أن مطالع الكلام و فواتحه من مواضع التأنق والإبداع، فما بالنا لو كانت تلك المطالع والفواتح لسور القرآن العظيم المعجز بكل كلمة وحرف؟، وما بالنا لو كان ذلك المطلع خطابا لأشرف الخلق وأكرم المرسلين؟.

والخبر هو الغرض الأساسي من الكلام، وقد جعله الإمام عبد القاهر أول المعاني وأعظمها شأنًا، حيث يقول: "الخبر أوّل معاني الكلام وأقدمُها، والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتّب عليه"[(١)]، فهو يتصور بصورٍ كثيرة، وفيه يكون في الأمر الأعمِّ، المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة[(٢)].

لذا كان اختياري لأن يكون موضوع هذا البحث (بلاغة الخبر في فواتح السور، في خطاب سيد البشر(ﷺ))، لما لتلك الأخبار من الأهمية، فخطاب المولى –عز وجل– لرسوله ومصطفاه محمد(ﷺ) يشير إلى أهمية تلك الأخبار وخطرها، وحاجة المسلمين إلى معرفتها، لِما تحملُ من إخبارٍ عن غيبيات لا تدخلُ في علم البشر، أو تشريعاتٍ وأحكامٍ تتعلق بحياة المسلمين وأحوالهم الدنيوية أو الأخروية.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على منهج التحليل البلاغي، وذلك بتحليل الأسلوب الخبري، تحليلًا بلاغيًا، بما يكشف معناه، ويدل على الغرض المقصود منه، مع تحليل الأساليب والتراكيب اللغوية الواردة في فاتحة كل سورة، ببيان بلاغتها، ودقة ألفاظها، وأثرها في الأسلوب الخبري، إلى جانب بيان المناسبة بين فاتحة السورة وسابقتها ووجه الارتباط بينهما.

---

(١) أسرار البلاغة/ للإمام عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): ص٣٦٦، تعليق : محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

(٢) دلائل الإعجاز/ للإمام عبد القاهر الجرجاني: ص٥٢٨، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

و جاء الاستفتاح بالجمل الخبرية في سياق إخبار الرسول(ﷺ) في مواطنَ عدةٍ[1]، وأغراضٍ متنوعةٍ، وقد اقتصرت في هذه الدراسة على السور التي افتتحت بالأسلوب الخبري، وكان خطاب النبي (ﷺ) في أول آية منها، بما يشير إلى أهمية الخبر والعناية به، والذى أخذ أهميته من وجهين: الوجه الأول: كون الخبر واقعًا في صدر السورة وفاتحتها، والآخر: كونه خطابا من المولى سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد(ﷺ) الذي شرفه ربه وأكرمه بخطابه، وقد جاء ذلك الخطاب في فواتح السور الآتية:

(الأنفال – والفتح – والمجادلة – وعبس – والكوثر)٠

حيث صدرت تلك السور بالجملة الخبرية وكان خطاب المولى –سبحانه– لرسوله (ﷺ) في أول آية منها، عَدا سورة عبس فقد أُرْجِأ الخطاب المباشر للنبي (ﷺ) إلى الآية الثالثة، وكان مقصودًا بالخبر من أول آية ترحما به –عليه السلام– وإجلالا له ٠

وجاءت خطة البحث تشتمل على (مقدمة، وتمهيد، وفصلين وخاتمة وفهارس:

أولاً: المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، و المنهج المتبع في دراسته.

ثانيًا: التمهيد: ويتناول التعريف بجانبين من جوانب البحث:

الأول: بيان المقصود بالخبر، لغة واصطلاحًا، حيث ذكرت بعضًا من أقوال العلماء في الخبر، وبَيَّنت أضربه، وبعض أغراضه، والثاني: التعريف بالفواتح، ومكانتها، وأهمية دراستها عند البلاغيين ٠

أما الفصلان: فعرضت فيهما السور التي افتتحت بإخبار الرسول(ﷺ)، سواء كان الإخبار بأمور غيبية، أو أمور تشريعية، مراعية في ترتيبها داخل كل فصل الترتيب المصحفي، وقد جاءت كالآتي:–

الفصل الأول: يتناول بلاغة الخبر في فواتح السور في خطاب سيد

(١) البرهان في علوم القرآن/ للزركشي: ج١/١٧٩، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م٠

البشر(ﷺ) في الأمور الغيبية، وجاء في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر (ﷺ) في فاتحة سورة الفتح.

المبحث الثاني : بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر (ﷺ) في فاتحة سورة عبس.

المبحث الثالث: بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر (ﷺ) في فاتحة سورة الكوثر.

الفصل الثاني: يتناول بلاغة الخبر في فواتح السور في خطاب سيد البشر (ﷺ) في الأمور التشريعية، وجاء في مبحثين:

المبحث الأول: بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر (ﷺ) في فاتحة سورة الانفال.

المبحث الثاني : بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر (ﷺ) في فاتحة سورة المجادلة.

ثم ذيلت البحث بالخاتمة وبها أهم النتائج، ثم الفهارس.

والله من وراء القصد

وهو الهادي إلى واء السبيل

التمهيد

أولا: المقصود بالخبر:

الخبر في اللغة:

جاء في اللسان " خَبُرْتُ بالأَمر، أَي عَلِمْتُهُ. وخَبَرْتُ الأَمرَ أَخْبُرُهُ إِذا عَرَفْتَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ. وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[1]؛ أَي اسأَل عَنْهُ خَبِيرًا يَخْبُرُ. والخَبَرُ، بِالتَّحْرِيكِ: وَاحِدُ الأَخْبَار. والخَبَرُ: مَا أَتاك مِنْ نَبإٍ عَمَّنْ تَسْتَخْبِرُ، وقال ابْنُ سِيدَهْ: الخَبَرُ النَّبَأُ، وَالْجَمْعُ أَخْبَارٌ، وأَخابِير جَمْعُ الْجَمْعِ"[2].

الخبر عند البلاغيين:

ذكر الإمام السكاكي (ت:٦٢٦هـ) أن" الاعتبار في كلام العرب شيئان الخبر والطلب"[3]، و هو يرى استغناءهما عن ذكر الحدود والتعريفات حيث يقول: " إن المعتنين بشأنهما فرقتان: فرقة تحوجهما إلى التعريف، وفرقة تغنيهما عن ذلك، واختيارنا قول هؤلاء"[4]، ولم يعول على قول من قام بتعريفهما، وفند تلك الحدود بقوله:

"هذا والحدود التي تذكر كقولهم: الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب أو التصديق والتكذيب، وكقولهم هو الكلام المفيد بنفسه إضافة أمر من الأمور على أمر من الأمور نفيًا أو إثباتًا بعد تعريفهم الكلام بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المتميزة، وكقول من قال: هو المقتضى بصريحه نسبة معلوم على معلوم بالنفي أو الإثبات ليتها صلحت للتعويل"[5]، وذكر في كتابه (المفتاح) أسباباً لذلك[6].

كما يذكر أن الأولى من ذكر الحدود و التعريفات وضع قانون لهما

---

(١) سورة الفرقان: من الآية (٥٩).

(٢) لسان العرب: لجمال الدين ابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ) مادة (خ ب ر)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي : ص١٦٤، علق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(٤) المرجع السابق: الصفحة نفسها .

(٥) المفتاح : ص ١٦٤.

(٦) المفتاح : ص ١٦٤,١٦٥.

يقول: "ولنكتف بهذا القدر من التنبيه على استغناء الخبر و الطلب عن التعريف الحدي، ولنعين لمساق الحديث في كل واحد منهما قانونا"(١) .

وهو بهذا يخالف رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت:٤٧١هـ) الذي ذكره في الأسرار، إذْ يرى ضرورة معرفة الحدود، وتوضيح الأقسام بقوله "فإنك تعلم أن قائلاً لو قال الخبر مثل قولنا: (زيد منطلق)، ورضي به وقَنِع، ولم تطالبه نفسُه بأن يعرف حدّاً للخبر، إذا عرفه تَميَّز في نفسه من سائر الكلام، حتى يمكنهُ أن يعلم هاهنا كلاماً لفظُه لفظُ الخبر، وليس هو بخبرٍ، ولكنه دعاءٌ كقولنا: (رحمةُ اللَّه عليه، وغفر الله)"(٢)، فهو يرى أن الحاجة إلى معرفة الحدود ضرورة لا يستغنى عنها لأي مصطلح لغوي حتى تتمايز الحدود، وتتضح الأقسام والأنواع، فلا تختلط المعاني، لدى المخاطب ويعلم الخبر من غيره من المقاصد التي قد تفهم من السياقات والأحوال.

ويؤكد أن تلك الحدد لابد أن تكون صالحة لكل لغة، لا تختص بها لغة دون غيرها، يقول: "لأنك تَحُدُّ من جهةٍ لا اختصاصَ لها بلُغةٍ دون لغة، ألا تَرَى أن حدَّك الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب مما لا يخُصُّ لساناً دون لسان"(٣)، و بذلك يشير إلى أن هذا التعريف للخبر يصدق عليه في كل اللغات ولا يختص بالعربية وحدها .

وأما الخطيب القزويني فقد جعل الكلام قسمين ، والخبر عنده ما كان له نسبة في الخارج تطابقه أولا تطابقه، يقول: " الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته (٤) خارج تطابقه، ووافقه في ذلك سعد الدين التفتازاني (٥)، وبذلك يتضح أن المقصود بالخبر هو الكلام المخبر به.

---

(١) المفتاح : ص ١٦٥.

(٢) أسرار البلاغة : ص٦٠,٦١.

(٣) المرجع السابق: ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٤) النسبة، "هي تعلق أحد الشيئين بالآخر بحيث يصح السكوت عليه، سواء كان إيجابًا أو سلبًا أو غيرهما، كما في الإنشائيات". ينظر شرح سعد الدين التفتازاني (ضمن شروح التلخيص) ج١/١٦٣,١٦٤، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان)

(٥) المطول : لسعد الدين التفتازاني ،ص٣٨، ط أحمد كامل ،الناشر : المكتبة الازهرية للتراث ،١٣٣٠هـ.

وأورد السبكي أن من العلماء "من يجعل الكلام خبرًا أو طلبًا ،وهو ابن مالك في الكافية"[١]،

وذكر ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) في كتابه (أدب الكاتب) أن "الكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة؛ ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي: الأمر، والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر"[٢].

ثم تلاه قدامة ابن جعفر(٣٣٧هـ) فقسم الكلام إلى: خبر وطلب، وهو يعرف الخبر بأنه" كل قول أفدت به مستمعيه ما لم يكن عنده"[٣].

ثم يقول: "وليس في صنوف القول وفنونه ما يقع فيه الصدق والكذب غير الخبر والجواب، إلا أن الصدق والكذب يستعملان في الخبر، ويستعمل مكانهما في الجواب الخطأ والصواب، والمعنى واحد، وإن فرق اللفظ بينهما ،وكذا يستعمل في الاعتقاد في موضع الصدق والكذب الحق والباطل قريب من قريب"[٤].

وعقد أحمد ابن فارس(ت٣٩٥هـ) في كتابه (الصاحبي) بابا سماه (معاني الكلام) وذكر أن هذه المعاني "عند بعض أهل العلم عشرة: خبرٌ. واستخبار. وأمر. ونهي. ودُعاء. وطَلَب. وعَرْض. وتحْضيض. وتَمنّ. وتعجّبٌ. والخبر عنده هو العلم يقول : أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثرَ من أنّه إعلامٌ. تقول: "أخبرتُه. أخْبِرْه" والخبر هو العلم.

وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه. وهو إفادة المخاطَب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستَقبل أو دائم. نحو: "قام زيد"، و"يقوم زيد"، و"قائم زيد". ثمّ يكون واجبًا وجائزًا وممتنعًا. فالواجب قولنا: "النار مُحرقة". والجائز قولنا: "لقي زيد عمراً". والممتنع قولنا: "حملتُ الجَبَل"[٥].

---

(١) عروس الأفراح : لبهاء الدين السبكي (ضمن شروح التلخيص) ج ١/١٧٣. دار الكتب العلمية بيروت –لبنان.

(٢) أدب الكاتب: لابن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، ص٧، المحقق: محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة.

(٣) نقد النثر : لقدامة ابن جعفر ص٤٤.

(٤) نقد النثر : ص٤٤، ومابعدها.

(٥) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، ،ص١٣٣، الناشر: محمد علي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

وكذلك الإمام العلوي (ت٧٤٩هـ) [١] جعل الخبر من القسم غير طلبي من الكلام، الذي يحتمل الصدق والكذب.

ومن خلال سرد بعض أقوال العلماء في الخبر يتضح ذلك الاتفاق بينهم على أن الخبر: هو إعلام يحتمل الصدق والكذب، وهو ما يتفق مع المعنى اللغوي، القائم على مفهوم الإعلام والمعرفة، والذي ذكره صريحا كل من قدامة، وابن فارس، و يتفق مع المقصود بالخبر في البحث، إذ أنه إعلام من المولى – سبحانه وتعالى– لرسوله (ﷺ) بما لم يكن يعلم، من أمر غيبي أو تشريعي، مع العلم بأن أخبار المولى –سبحانه– مقطوع بصدقها، ولا تحتمل كذبًا، وأن إطلاق لفظ الخبر عليها باعتبار أنها مطلق أخبار.

ثانيًا: أغراض الخبر:

ذكر علماء البلاغة أن الخبر يلقى على المخاطب لإفادة غرضين أصليين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، سمي الثاني بهذا الاسم؛ "لأنه يلزم من إفادة المخاطب الحكم، إفادته أن عنده علما أو ظنا به"[٢].

ومن البين أن معرفة الغرض من الخبر يتوقف على معرفة حال كُلٍّ من المتكلم والمخاطب معًا،

وأن "والغرض الأول – فائدة الخبر– يستفاد من ذات الخبر، وما عداه من الأغراض يدل عليها الخبر دلالة تبعية؛ فهي من مستتبعات الكلام، ولا توصف بأنها حقيقة ولا مجاز ولا كناية[٣].

كما يأتي الخبر لأغراض متنوعة ووفي مقامات مختلفة، ومن أغراضه ما ذكره ابن فارس[٤] بقوله: "والمعاني التي يحتملها لفظ "الخبر" كثيرة: فمنها التعجب نحو: "ما أحسنَ زيداً". والمنّي نحو: "ودِدتُكَ عندنا" والإنكار: "ما له عليَّ

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلويّ (المتوفى: ٧٤٩هـ): ج٢٦/١،الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: لعبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ): ج٤١/١، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

(٣) المرجع السابق : الصفحة نفسها.

(٤) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ص١٣٣,١٣٤.

حق". والنفي: "لا بَأسَ عليك". والأمر نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ (١)، والنهي نحو قوله سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٢)، والتعظيم نحو:"سبحان اللهِ"، والدُّعاء نحو: "عفا الله عنه". والوعد نحو قوله جلّ وعزّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ (٣)، والوعيد نحو قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (٤)، والإنكار والتبكيت نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٥)".

وربّما كان اللفظُ خبراً والمعنى شرطًا وجزاًء، نحو قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٦)،فظاهره خبر، والمعنى: إنّا إن نكشف عنكم العذاب تعودوا، ومثله قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ (٧)، المعنى: مَن طلّق امرأته مرتين فليُمْسِكها بعدهما بمعروف، أو يسرّحها بإحسان.

... ويكون اللفظ خَبَراً، والمعنى دعاًء وطلبًا نحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٨)، معناه فأعِنّا على عبادتك. ويقول القائل: "أستغفر الله" والمعنى: اغْفِرْ. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٩).

كما ورد الخبر في القرآن العظيم دالا على كثير من الأغراض التي تناسب المقام وتوافق المقصود من كل خبر.

واقتصر الحديث هنا عن الغرض الأول –فائدة الخبر– دون لازمها؛ لأن المُخَاطِب وهو المولى –سبحانه وتعالى– لايكون إخباره للازم الفائدة؛ لثبوت علمه القديم بالظاهر والباطن، وأن إخباره– سبحانه– يكون لإعلام المخاطب ما يجهل، من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة البقرة، من الآية: (٢٢٨).
(٢) سورة الواقعة، من الآية: (٧٩).
(٣) سورة فصلت من الآية: (٤١).
(٤) سورة الشعراء، من الآية: (٢٢٧).
(٥) سورة الدخان، من الآية: (٤٩).
(٦) سورة الدخان، من الآية:(١٥).
(٧) سورة البقرة، من الآية: (٢٢٩).
(٨) سورة الفاتحة، من الآية: (٤).
(٩) سورة يوسف، من الآية: (٩٢).

ثالثًا : أضرب الخبر:

ذكر علماء البلاغة أن الخبر يأتي على ثلاثة أضرب، تختلف في توكيد الخبر وعدمه تبعًا لاختلاف أحوال المخاطبين، من خلو الذهن من الخبر، أو التردد فيه، أو إنكاره، ويسمي الضرب الأول ابتدائي؛ لخلو ذهن المخاطب من مضمون الخبر، والثاني طلبي؛ لمجيئه حال التردد أو الإنكار، والثالث إنكاري؛ لمجيئه في حال إنكار الخبر، وعدم التسليم به، وقد ورد الخبر في القرآن الكريم على تلك الأضرب الثلاثة:

فإذا كان الغرض هو مطلق الخبر ولم يكن هناك داعٍ إلى تأكيده من تردد أو إنكار، جاء الخبر خاليًا من المؤكدات، كقول المولى سبحانه وتعالى:﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، وقوله ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى﴾(٢)، وقوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾(٣)، فالغرض من الخبر في تلك الآيات مطلق الإخبار، ولهذا وردت مطلقة غير مؤكدة وهو الضرب الابتدائي.

أما إذا كان المقصود من الخبر الطلب، وكان هناك تردد في قبوله، فحَسُنَ تقويته بمؤكد؛ لتوضيحه وتقريره، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾،(٥) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ﴾ (٦)، وقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٧)، إلى غير ذلك مما يطلب به توكيد الخبر وتقويته، ولهذا وردت هذه الأخبار مؤكدة (بإنَّ)، وهو الضرب الطلبي.

---

(١) سورة البقرة الآية (٣١).
(٢) القصص: من الآية (٢٠).
(٣) سورة الأنعام: من الآية: (٢٥).
(٤) سورة القمر: من الآية: (٢٧).
(٥) سورة العنكبوت: من الآية: (٣٤).
(٦) سورة ص من الآية: (٤٦).
(٧) سورة القدر: الآية: (١).

وإذا كان هناك إنكار وعدم تسليم بالحكم، وجب تأكيد الخبر بأكثر من مؤكد لأجل إنكاره، كقول المولى سبحانه وتعالى في سورة يس: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (١)، ثم لما أنكروا وكذبوا، جاء قوله: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (٢)، فأكد بأكثر من مؤكد لرد هذا الإنكار ٠

ومن المؤكد بأداتي تأكيد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيار﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى﴾(٥)، وهذا الخبر المؤكد قد يرد مؤكدا، إما من غير إنكار فيكون تأكيده حسنا، وقد يرد على جهة الإنكار فيكون تأكيده واجبا"(٦) ٠

وقد يخرج الخبر عن تلك الأضرب، حيث يأتي الخبر مؤكدًا في مقام خلو الذهن، ويترك التأكيد في مقام التردد أو الانكار؛ لدواعٍ وأغراضٍ تُراعى في كل حالٍ ومقامٍ، ويسمى هذا عند البلاغيين خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وقد ورد الخبر في القرآن الكريم مراعيًا تلك الأحوال، ومعبرًا عنها جميعًا ٠

ومن ذلك قول المولى سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٧)، حيث أكد إثبات الموت بتأكيدين، وإن كان مما لا ينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الموت لتماديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون "تموتون"، كما أكد إثبات البعث تأكيدًا واحدًا، وإن كان مما ينكر؛ لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرًا بأن لا ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فَيُنَزَّلُ المخاطبون منزلة المترددين، تنبيهًا لهم على ظهور أدلته، وحثًّا لهم على النظر فيها، ولهذا جاء تبعثون على

---

(١) سورة يس من الآية: (١٤).
(٢) سورة يس من الآية: (١٦).
(٣) سورة ص من الآية: (٤٧).
(٤) سورة ص من الآية: (٤٠).
(٥) سورة ق من الآية: (٣٧).
(٦) الطراز: ج ١٤٢/٣.
(٧) سورة المؤمنون: من الآية (١٥,١٤)٠

الأصل"[1].

ومنه قول المولى سبحانه مخاطبًا الكفار: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]، كان مقتضى الظاهر أن يلقى على الكفار المنكرين بأكثر من مؤكد، وقد ترك النظم الكريم التأكيد تعريضا بالكافرين، لأنهم لو تفكروا لعلموا ذلك وتيقنوا منه.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني:ج ٧٦/١.
(٢) سورة النحل الآية : (٢٢).

ثانيًا: التعريف بفواتح سور الْقُرْآن:

أولا: معنى الفتح في اللغة:

جاء في اللسان:" الفَتْحُ: نَقِيضُ الإِغلاقِ، فَتَحه يَفْتَحه فَتْحًا وافْتَتَحه...– يقال– اسْتَفْتَحْتُ الشيءَ وافْتَتَحْتُه،...وَفَاتِحَةُ الشَّيْءِ: أَوَّله... وفَواتحُ الْقُرْآنِ: أَوائل السُّوَرِ، الْوَاحِدَةُ فَاتِحَةٌ"(١)، و يقال " فَاتِحَةُ كلّ شيء: مبدؤه الذي يفتح به ما بعده، وبه سمّي فاتحة الكتاب، وقيل: افْتَتَحَ فلان كذا: إذا ابتدأ به، وفَتَحَ عليه كذا: إذا أعلمه ووقّفه عليه، قال تعالى(٢)﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾"(٣)

والمراد بفواتح السور "ما به افتتاحها من جمل ومفردات"(٤) بما يكشف مقصدها والمراد منها.

ثانيا: التعريف بالسورة القرآنية:

معناها اللغوي:

أورد ابن منظور لمعنى السورة القرآنية عدة معانٍ أظهرها: (سور البناء، والبقية، والمنزلة الرفيعة) .

جاء في معجمه "والسُّورُ جَمْعُ سُورَة ... وَهِيَ كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ؛ وَمِنْهُ سُورَةُ الْقُرْآنِ لأَنها منزلةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ مقطوعةٌ عَنِ الأُخرى وَالْجَمْعُ سُوَرٌ بِفَتْحِ الْوَاوِ،... وسميت السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةً لأَنها دَرَجَةٌ إِلى غَيْرِهَا، وَمَنْ هَمَزَهَا جَعَلَهَا بِمَعْنَى بَقِيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وقِطْعَة، وأَكثر الْقُرَّاءِ عَلَى تَرْكِ الْهَمْزَةِ فِيهَا،...؛وسُورَةُ كُلِّ شَيْءٍ حَدُّهُ" (٥).

---

(١) لسان العرب: لابن منظور مادة (فتح).

(٢) سورة البقرة: من الآية (٧٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٦٢١، المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

(٤) حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص):ج٤/٥٤٥، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٥) لسان العرب: مادة "سور".

ذكر الدسوقي في حاشيته: "السورة تطلق على المنزلة المرتفعة، سميت الجملة من القرآن بذلك لارتفاع شأنها من أجل أنها كلام الله"(١) .

وقد عرفها به أيضًا الإمام القرطبي(ت٦٧١هـ)(٢)، وذكر أن " السور جمع سورة، وهي جملة من القرآن مشتملة على فاتحة، وخاتمة، وآي، أقلها ثلاث، ويقال فيها سؤرة بالهمز وتركه"(٣).

وكأن السورة تحيط بالمعاني والدلالات المقصودة بها كما يحيط السور بالبناء، قال: "سميت بذلك لإحاطتها بآياتها كإحاطة البناء بالبلد ومنه السوار لإحاطته بالساعد"(٤)،وقد أنزل المولى عز وجل القرآن الكريم على رسوله محمد (ﷺ) مفصلًا، وبين فاتحة كل سورة وخاتمتها، وميز كل سورة عما سبقها ولحقها.

المقصود بالسورة في الاصطلاح :

يقصد بالسُّورة: " قِطْعَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مُعَيَّنَةٌ بِمَبْدَأٍ وَنِهَايَةٍ لَا يَتَغَيَّرَانِ، مُسَمَّاةٌ بِاسْمٍ مَخْصُوصٍ، تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ فَأَكْثَرَ فِي غَرَضٍ تَامٍّ تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ مَعَانِي آيَاتِ تِلْكَ السُّورَة، ناشيء عَنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ، أَوْ عَنْ مُقْتَضَيَاتِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُتَنَاسِبَةِ"(٥).

وقيل أيضًا " السورة الطائفة المترجمة، والترجمة في الأصل تفسير لغة بأخرى، وتطلق على التبليغ مطلقا"(٦).

---

(١) حاشية الدسوقي : (ضمن الشروح) ج٤/٥٤٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ج ١٥٨/١٢، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) حاشية الدسوقي (ضمن الشروح): ج ٤/٥٤٥ .

(٥) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ج١/٨٤، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ.

(٦) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي: لشهاب الدين الخفاجي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)،ج١/١٥، الناشر: دار صادر – بيروت.

وجاء في المفردات أن "قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾[1]،أى: جملة من الأحكام والحكم"[2]. وتسمية مجموعة أو عدد من آيات القرآن الكريم بذلك الاسم – سُورَةٌ – هي من مصطلحات القرآن الكريم ، حيث جاء اسم سورة على سورة النور في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها﴾[3]، وقد شاعت هذه التسمية عند المسلمين وغير المسلمين.

وقد اهتم العلماء بالفواتح والخواتيم وجعلوها من وجوه إعجَاز القرآن وأسرار بلاغته، يقول الإمام السيوطي (ت: ٩١١هـ) في بيان أهمية الفواتح "وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين، وهو أنْ يتأنقَ في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع"[4].

وصف ابن أبي الإصبع الفواتح بقوله: "وإذا نظرت إلى فواتح السور الفرقانية جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه"[5].

وسئل الشعبي –رحمه الله– عنها فقال: "إن لكل كتاب سرّاً وسر القرآن فواتح السور"[6].

كما عده العلماء ركنًا من أركان البلاغة[7]، وذكر الخطيب أن:" جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن الوجوه وأكملها"[8] "، و ذكر ابن يعقوب أنها

---

(١) سورة النور: آية (١).
(٢) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهانى ص٤٣٤.
(٣) سورة النور من الآية :(١).
(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)،ج١/٥٨، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
(٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع العدواني: ص١٧٢، ، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.
(٦) حاشية الشِّهاب علَى تفْسير البيضاوي:ج١/١٧٧.
(٧) الطراز للعلوى (ت٧٤٩هـ) ص ٣٣٠.
(٨) شروح التلخيص:ج ٤/٥٤٥، ٥٤٦ – ط. دار السرور بيروت.

"واردة على أكمل ما ينبغي من البلاغة ، وأعلى ما يراعى من البراعة ،فتجد فيها من الفنون أي: المعاني المختلفة المطابق كل منه

وفواتح القرآن أبلغ الافتتاحات وأحسنها؛ لدقتها وشدة ارتباطها بالمعنى المقصود، وذلك؛ لأن " الأبلغ والأحسن أن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود"(١) وأن يكون "مناسبًا لقصد المتكلم من جميع جهاته"(٢)، ومطالع السور في القرآن الكريم دالة على مقاصدها معبرة عنها بدقة وإحكام.

وكما أن الإبتداء الحسن يكون داعيًا ومشوقًا لما يأتي بعده من الكلام، يقول الإمام أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)رحمه الله- :"يقول الله – عز وجل-: ﴿الم، حم، طس، طسم، كهيعص﴾، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده"(٣)، فالمتحدث إذا أراد جذبِ انتباه سامعيه فعليه أن يتأنق أول كلامه، فيأتي بالألفاظ الملائمة للغرض بأسلوب أنيق ولفظ بديع ، حيث يقبل عليه السامع ويصغي إليه باهتمام.

"ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال، وهو: " أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحالَ المُتَكَلَمُ فيه، ويشير إلى ما سيق الكلامُ لأجله....." وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة"(٤).

يقول ابن أبي الإصبع واصفًا ذلك:" أنى لاحظت فواتح السور- أعنى- الكلمات المفردات، لا أوائل السور من الآيات بل كل لفظة افتتحت بها سورة دون ما بعدها من الكلمات كلفظة (الحمد) بمجردها من الفاتحة، ولفظة (الم) بمجردها من البقرة، فرأيتها ينتظم منها إعجاز يحصل به الاستدلال القاطع للمنازع عند الجدل، هذا على أنها مفردات، كما يقع الإعجاز بالجمل

(١) سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي، ص٢٧٠، الناشر: دارالكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى، ص ٣٠٩، تحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة، ط. دار الكتب الشرقية.

(٣) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ص٤٩٣,٤٩٦، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت.

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ،للسيوطي: ج١/٥٨.

المؤلفات، فكان هذا خارجًا مخرج العجب العجاب، واستنباط مثله فضيلة يشهد بها ذوو الالباب"[١].

وقد ذكر ابن الاثير أهمية فواتح الكلام في المبادئ والافتتاحات، وجعلها أحد الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها في الفصل التاسع من مقدمة كتابه، و جعل فائدته "أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولِمَ هذا النوع؟"[٢].

كما أشار شراح التلخيص إلى بعض أنواع الفواتح والخواتم، وسار من بعدهم على دربهم في البيان والشرح[٣].

فالفواتح من أسرار إعجاز القرآن إلى جانب فصاحة ألفاظه ودقة نظمه، حيث لا تصلح لفظة مكان أخرى، ولا أسلوب مكان أسلوب آخر، كما يقول الإمام السيوطي–رحمه الله–"وكتابُ الله سبحانه لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد"[٤].

ومن أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، ما تضمنه من مزايا ظاهرة في فواتح السور ومقاصدها وخواتيمها، وفي مبادئ الآيات وفواصلها، والذي رده الكثير من العلماء إلى دقة نظمه، وفصاحة ألفاظه، وبلاغة تراكيبه و معانيه ، مع ما في القرآن من إخبار عن غيبيات مستقبلية أخبر بوقوعها، أو أحداث ماضية أخبر عنها، وما فيه من تشريعات وأحكام لبناء خير أمة وأصلح مجتمع.

وقد تعددت الأساليب في فواتح السور القرآنية حيث جاءت على صور متنوعة، ذكرها الإمام الزركشي مفصلة في كتابه البرهان[٥].

---

(١) الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبى الإصبع المصري – تقديم وتحقيق: د/ حفني محمد شرف، ص ٧٣ ، مطبعة الرسالة – القاهرة ١٩٦٠م.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج٣/٩٦.

(٣) شروح التلخيص، ج٤/٥٤٥: ٥٤٧.

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي ، ج١/٢٣،

(٥) حيث ذكر أن المولى –سبحانه وتعالى– افتتح كتابه بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها، وهي الآتي: الثناء عليه تعالى بالتحميد، والتسبيح: وعددها أربع عشرة سورة ، والاستفتاح بحروف التهجى: وعددها تسع وعشرون سورة ، والنداء: في عشر سور، والجمل الخبرية: في ثلاث وعشرين ، والقسم: في خمس عشر، والشرط: في سبع ، والأمر: في ست ، والاستفهام: في ست، والدعاء: في ثلاث، والتعليل: في سورة واحدة=

وإذا كان الحديث هنا عن الخبر في فواتح السور، فإن محور البحث هو الأسلوب الخبري الوارد في صدر السورة، وكان مخاطبًا به النبي (ﷺ)، وما يتم به الخبر من آيات.

السور التي افتتحت بالجملة الخبرية في القرآن:

افتتحت بعض السور في كتابه العزيز بالأسلوب الخبري، والتي عدها الإمام الشوكاني[1] ثلاثا وعشرين سورة، صدرت بالجملة الخبرية، جاء خطاب النبي(ﷺ) في عشر سور منها، حيث ورد خطابه(ﷺ) في الآية الأولى في خمس سور، وهي على ترتيب المصحف كل من سورة (الأنفال، الفتح ، المجادلة، عبس، الكوثر).

وورد في الآية الثانية في ثلاث سور، وهي (الزمر، والبلد، والقدر)، وفي الآية الثالثة في سورتين، هما (الحاقة ، والقارعة).

وقد خصصت منها للدراسة الخطاب الوارد في الآية الأولى من حيث صدرت السورة بالخبر والخطاب معًا، وهو المقصود بالخطاب بالخبر في فاتحة السورة.

= ينظر البرهان في علوم القرآن، ج ١/١٧٩، ١٨٠ – الموسوعة القرآنية للأبياري، ص ٢/٢٧٨-٢٧٩، الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: ١٤٠٥ هـ).

(١) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ،ص١/١٧٩.

الفصل الأول

بلاغة الخبر في فواتح السور في خطاب سيد البشر(ﷺ) في الأمور الغيبية

تمهيد:

الغيب في اللغة :": مصدر غَابَتِ الشّمسُ وغيرها: إذا استترت عن العين، يقال: غَابَ عنّي كذا. قال تعالى: ﴿أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾(١)٠

واستعمل في كلّ غَائِبٍ عن الحاسّة، وعمّا يَغِيبُ عن علم الإنسان بمعنى الغَائِبِ، قال: ﴿وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾(٢)٠

ويقال للشيء: غَيْبٌ وغَائِبٌ باعتباره بالناس لا بالله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء، ... والْغَيْب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(٣)، ما لا يقع تحت الحواسّ ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام"(٤)٠

والمقصود بالغيبيات في الشرع :

"ما يتوقف الإيمان به على مجرد ورود السمع أو الوحي به، وليس للعقل في إثباتها أو نفيها مدخل، كأشراط القيامة، وتفاصيل البعث والجزاء دون أصلهما، والصراط والحوض، وأخبار الجنة والنار، ونحو ذلك."(٥) من السمعيات التي ورد الإخبار بها، والواجب على كل مسلم الإيمان بتلك الغيبيات، والتي ورد ذكرها في الكتاب والسنة، فهما مصدر معرفتها والعلم بها، و"على الصورة التي يخبر بها الرسل، حيث تلقّوا الأخبار عن تلك الغيبيات، وحيا

---

(١) سورة النمل: من الآية (٢٠)٠
(٢) سورة النمل: من الآية (٧٥)٠
(٣) سورة البقرة : من الآية (٣)٠
(٤) المفردات في غريب القرآن : للأصفهاني ،ص٦١٦، ٦١٧.
(٥) طريق الهداية – مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة ، المؤلف: محمد يسري، ص١٣٧،
الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف الطبعة: الثانية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م

من الله، وهم الأمناء على ما أوحى إليهم من ربّهم"[1]، وأنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما أخبرهم المولى سبحانه وتعالى به، قال تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[2].

وقد كرَّم المولى –سبحانه– بعض خَلْقه، وأطلعهم على شيء من الغيب، لدواعٍ وأغراض، ومنها الغيبيات التي أخبر بها النبي(ﷺ)، والواجب علينا تصديقها والإيمان بها، قال تعالى: ﴿ومَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى﴾[3].

ومما يدل على إخبار المولى –سبحانه– لرسوله (ﷺ) شيئا من الغيب، وما خفي عن علمه –عليه السلام– من أحوال الدنيا والآخرة، قوله سبحانه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾[4].

أما عن عدد السور موضوع الدراسة، والتي أُخبر فيها النبي (ﷺ) بشيء غيبي، وصُدِّرت بالخبر فهي ثلاث سور، وهي عى ترتيب المصحف: سور(الفتح، وعبس، والكوثر)، وقد اعتمدت في ذلك على ما ورد من المعنى اللغوي للغيب، والقائم على أن الغيب يراد به كل ما يغيب عن علم الإنسان وحواسه، سواء كان غيب دنيوي كما هو في سورتي الفتح وعبس، أو أخروي كما هو في سورة الكوثر، ولذلك تنوعت الأمور الغيبية في تلك السور تبعا لتنوع الغيبيات واختلافها، و جاءت على النحو التالي :

أولا: سورة الفتح ورد الإخبار فيها عن غيب زمني، وهو حدث مستقبلي، يحدث بعد الزمن الحاضر، وهو نصر يحققه المولى –سبحانه وتعالى– لرسوله والمؤمنين في المستقبل.

ومن المعلوم أن الإخبار بما يحدث فيما يستقبل من الزمان من الغيب، لأن الإنسان علمه قاصر على ما حدث في الزمن الماضي، أو يحدث في الحاضر،

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، ص٢٧، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.
(٢) سورة الانعام: من الآية (٥٩).
(٣) سورة النجم: الآية (٢-٣).
(٤) سورة هود: من الآية (٤٩).

وكان قد شاهده أو أخبر به، ولا يعلم شيئا مما سوف يحدث في المستقبل، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١)، فالله وحده هو المختص بعلم ذلك لا غيره.

ثانيًا: جاء الأسلوب الخبري في سورة عبس معبرًا عن أمر خَفِيَ عن علم رسول الله (ﷺ)، حيث تصدى النبي(ﷺ) لقوم اختاروا الكفر على الإيمان، وطريق الضلال على طريق الهداية، ولم يكن عليه السلام على علم بخفايا النفوس، وما تنطوي عليه الصدور، وقد علم الله سبحانه بعلمه الأزلي القديم أنهم استحبوا الكفر وارتضوه، ورغبوا عن الإيمان وكرهوه، قال تعالى ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾(٢)، فطبع على قلوبهم، فلم ولن يؤمنوا، فالعلم بالبواطن، وما تخفي الصدور، غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه، فهو العليم بالظاهر والباطن، لا يخفى عن علمه شيء، وأن الأولى من رسول الله (ﷺ) ترك هؤلاء الجاحدين المعاندين، والتوجه بالعناية والاهتمام إلى من أقبل على دين الله، وقلبه منشرحًا لطاعته، متعلقًا بدينه، راجيًا تعلمه.

ثالثًا: كما جاء الخبر في سورة الكوثر عن غيب أخروي أعده المولى – سبحانه وتعالى– لنبيه وحبيبه محمد(ﷺ)، على أشهر الأقوال في تفسير المقصود بـ(الكوثر) وأنه نهر في الجنة أعده الله تعالى لنبيه(ﷺ)؛ تكريمًا له، وتشريفًا لمنزلته، لا يعلم كيفيته إلا المولى سبحانه، بما يؤكد على عظمته، ويشير إلى مكانته عليه السلام، قال تعالى ﴿ ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾(٣)، ليسعد قلبك بما أعد الله لك من عظيم الأجر والثواب.

(١) سورة لقمان: آية (٣٤).
(٢) سورة آل عمران : من الآية (١١٩).
(٣) سورة يوسف : من الآية (١٠٢).

المبحث الأول

بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر(ﷺ) في فاتحة سورة (الفتح)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ:

قال تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)﴾

افتتح المولى –سبحانه وتعالى– السورة الكريمة بخبر أدخل السرور على قلب نبيه وحبيبه محمد(ﷺ)، حيث بشره بفتح مبين، ومغفرة عامة، ونعمة تامة، ونصر عزيز، يحققه المولى– عز وجل– لأعظم نبي، و تنتفع به خير أمة.

أولاً: أغراض السورة :

ومن البين أن مدلول اسم السورة (الفتح)[(١)] وبدايتها يشير إلى مضمونها وما اشتملت عليه من أغراض وأخبار، فمن بداية السورة نري فضل المولى –سبحانه وتعالى– على رسوله (ﷺ) وأصحابه، وما أنعم به عليهم، إذ جاءت السورة من بدايتها وَعْدًا للرسول(ﷺ) بما سوف يتحقق من فتوحات، ونعم اختصه المولى عز وجل بها، "وهذا كله في غاية الظهور بما نطق ابتداؤها، بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات"[(٢)].

وقد جاءت السورة الكريمة مبشرة للرسول(ﷺ) بالفتح المبين، والمغفرة الشاملة، وإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين، ووعدهم بالنصر العظيم والفوز المتتابع، وكذلك وعيد المنافقين بغضب الله وسوء المصير، ثم وصف الرسول

---

(١) ورد أنها "نزلت بالمدينة على ما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، والأخبار تدل على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها، وهو الصحيح...–وذكر – نزولها بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنيًا على المشهور، عدد آياتها (تسع وعشرون آية) بالإجماع،" (انظر روح المعاني: للألوسي٢٣٨/١٣، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت).

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) ، ج ٢٧٣/١٨، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الكريم بالبشير والنذير، وذكر من بايع الله من المؤمنين المخلصين، ثم الحديث عن المخلفين من الأعراب، وما أعد الله للكافرين والمنافقين، ثم بيان المعذورين من المؤمنين، وتأكيد رضاه تعالى عن المؤمنين، وما وعدهم به من النصر، وصدق رؤيا الرسول الكريم، ثم التنويه في ختام السورة بشأن الرسول(ﷺ) ومن معه من المؤمنين، وذكر مثلهم في الكتب السابقة، وما وعدهم الله به من المغفرة والأجر العظيم ٠

ثانياً: مناسبة السورة لما قبلها :

جاءت سورة (الفتح) في ترتيب المصحف بعد سورة (محمد)، التي وصفت ظلم المشركين والمنافقين، وحرّضت المسلمين على الجهاد، وحذرتهم من البعد عن طاعة الله، وذكر الإمام أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)"أَنَّهُ تَقَدَّمَ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾[١] الآية، وهي خِطَابٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، أَخْبَرَ رَسُولَهُ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا الْفَتْحِ حَصَلَ الِاسْتِبْدَالُ، وَآمَنَ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا، وَصَارَتْ مَكَّةُ دَارَ إِيمَانٍ"[٢] ٠

وقد ذكر الإمام البقاعي (ت٨٨٥هـ) في وجه المناسبة، أن سورة محمد جاءت " بشارة للمجاهدين من أهل هذا الدين، بالفوز والنصر والظفر على كل من كفر...، وختمها بالتحريض على مجاهدتهم، بعد أن ضمن لمن نصره منهم النصر وتثبيت الأقدام، وهدد من أعرض باستبدال غيره به...، فكان ذلك محتماً لسفول الكفر وعلو الإيمان، وذلك بعينه هو الفتح المبين"[٣] ٠

كما صرح الإمام الألوسي(ت١٢٧٠هـ) بحسن موضعها من سابقتها، ورد ذلك إلى أن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال، وذكر أيضًا أن في سورة محمد ذكر الأمر بالاستغفار وذكر هنا وقوع المغفرة، وذكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف، وكني عنها بكلمة التقوى بناء على أشهر الأقوال فيها[٤] ٠

وأشار الإمام أبو جعفر بن الزبير إلى أن "ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات – وقد يغمض بعضها – منها أن سورة القتال لما أمروا فيها

(١) سورة محمد: من الآية (٣٨)٠
(٢) البحر المحيط : لابن حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)،ص ٤٨٢/٩، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت٠
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:ج٢٧٤,٢٧٣/١٨(بتصرف)٠
(٤) انظر روح المعاني للألوسي :ج٢٣٨/١٣.

بقتال عدوهم في قوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾[1] الآية، وأشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله:﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾[2]، استدعى ذلك تشوف النفوس إلى حالة العاقبة فعرفوا ذلك في هذه السورة، فقال تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[3] الآيات، فعرف تعالى نبيه (ﷺ) بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [4]، وبهذه الأقوال جميعًا يتبين جليًا الارتباط الوثيق بين معاني السورتين، وتتضح النكتة في مجيئ سورة الفتح تالية لسورة محمد[5].

المقصود بالفتح(٦):

اختلف العلماء في المقصود بالفتح، ذكر الأصفهاني (المتوفى ٥٠٢هـ) أن

---

(١) سورة محمد: من الآية (٤).
(٢) سورة محمد: من الآية (٧).
(٣) سورة الفتح : الآية (١).
(٤) سورة الفتح : من آية (٤).
(٥) نظم الدرر:١٨/٢٧٧.
(٦) جاء لفظ الفتح في كتب اللغة دالاً على معان متعددة، منها أن المقصود بالفتح:
"إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان: أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل والغلق والمتاع، نحو قوله:(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ) (يوسف/ ٦٥)، (وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ) (الحجر/ ١٤) .
والثاني: يدرك بالبصيرة كفتح الهمّ، وهو إزالة الغمّ، وذلك ضروب: أحدها: في الأمور الدّنيويّة كغمّ يفرج، وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، نحو: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ(الأنعام/ ٤٤) ، والثاني: فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك: فلان فَتَحَ من العلم بابا مغلقا، وقوله (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)، (الفتح/ ١) ، قيل: عنى فتح مكّة" (المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، ص،٦٢١).
وجاء في (المحكم) أن المقصود بـ "الفَتْحُ: افتتاحُ دَار الْحَرْب وَجمعه فُتُوحٌ. والفَتْحُ: النَّصْر، واستَفْتَح الفَتْح: سَأَلَهُ، وَفِي التَّنْزِيل: (إن تسْتَفْتِحُوا فقد جاءكمُ الفَتْحُ)، وَقَوله تَعَالَى: (إِنَّا فتَحْنا لَك فَتْحا مُبينا) قَالَ الزّجاج: جَاءَ فِي التَّفْسِير، قضينا لَك قَضَاء مُبينًا، أَي حكمنَا لَك بِإِظْهَار دين الْإِسْلَام وبالنصرة على عَدوك. قَالَ: وَأَكْثر مَا جَاءَ فِي التَّفْسِير انه فَتْحُ " الْحُدَيْبِيَة " وَكَانَت فِيهِ آيَة عَظِيمَة من آيَات النَّبِي(ﷺ)، وَكَانَ هَذَا الْفَتْح عَن غير قتال شَدِيد، قيل إِنَّه كَانَ عَن تراض بَين الْقَوْم، ....وَقَوله تَعَالَى: (إِذا جَاءَ نَصرُ الله والفَتْحُ) قيل عَنى فَتْحَ مَكَّة....واستَفْتَح اللهَ على فلَان: سَأَلَهُ النَّصْر عَلَيْهِ. والفَتاحَةُ: النُّصْرَة".(المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده المرسي[ت:٤٥٨هـ]، مادة :(فـ.تـ.ح)٣/٢٧٧، المحقق: عبدالحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

المقصود بالفتح: "ما فتح على النّبيّ من العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثّواب، والمقامات المحمودة التي صارت سببا لغفران ذنوبه(ﷺ)"[1].

كما أورد الإمام الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) في تفسير الفتح وجوهًا كثيرة، رجح منها ثلاثة "أحدها: فَتْحُ مَكَّةَ، وَالثَّانِي: فَتْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالثَّالِثُ: فَتْحُ الْإِسْلَامِ بِالْآيَةِ وَالْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ"[2].

وذكر الشهاب الخفاجي (المتوفى: ١٠٦٩هـ) أن ما ورد في السورة سمي "فتحاً لأنّ فيه معجزة له(ﷺ) لأنه أخبر عن الغيب فتحقق ما أخبر به"[3]، وذلك بتحقق الفتوحات التي أخبر بها النبي (ﷺ)، والتي ورد الحديث عنها من خلال السورة الكريمة.

ثم جاء الإمام الألوسي (المتوفى:١٢٧٠هـ) وذكر أنه "إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور ...قال ابن عطية: وهو الصحيح"[4]، فقد كان فتحًا للمسلمين، وتبشيرا بالنصر والغلبة على من عاداهم من الكافرين، وهو من الإخبار بالغيب أيضًا، باعتبار أن الصلح كان سببًا لفتوحات أخرى تالية له، وهو نصر يحققه المولى–سبحانه وتعالى– لرسوله(ﷺ) والمؤمنين نتيجة لذلك الصلح وتلك الهدنة، وبذلك يكون المقصود بالفتح على أي من تلك التفسيرات هو من الإخبار بما غاب عن العلم البشري.

ثالثاً: الغرض البلاغي للخبر في فاتحة السورة:

ذكر العلماء للأسلوب الخبري في فاتحة السورة أغراضًا متعددة، تبعا لتعدد آرائهم في المقصود بالفتح، حيث ذكر الإمام الألوسي (ت١٢٧٠هـ) أن المقصود بالخبر في فاتحة السورة هو (إفادة الحكم)، وأن تلك الإفادة بالنسبة إلى غير النبي(ﷺ)؛ لأنه–عليه الصلاة والسلام– يعلم ذلك، وكذا يعلم لازم

(١) المفردات في غريب القرآن:١/٦٢١.
(٢) مفاتيح الغيب : لفخر الدين الرازي، (المتوفى: ٦٠٦هـ)،ج ٢٨/٦٥، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .
(٣) حاشية الشهاب: ج٨/٥٤.
(٤) روح المعاني: ج١٣ /٢٣٩.

الفائدة، وحمل الغير على من لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم؛ لأن الحاضرين علموا ذلك قبل نزول السورة فلم يكن الخبر مجهولا بالنسبة لهم.

وذكر أن الحاضر إنما علم وقوع الصلح أو كون المشركين بحيث طلبوه، ولم يعلم كونه فتحًا كما يشعر به الخبر، وإن سلم أنه علم ذلك لكنه لم يعلم عظم شأنه، على ما يشعر به إسناده إلى نون العظمة، والإخبار به بذلك الاعتبار، وبهذا يكون الغرض هو إفادة الحكم بالنسبة لهم أيضًا.

وقد يكون المقصود بالإفادة كون ذلك للمغفرة وما عطف عليها، فيجوز أن تكون الفائدة بالنسبة إليه(ﷺ) أيضًا"[(١)]، ومن خلال ذلك يتضح أن الغرض من الخبر هو إفادة الحكم له(ﷺ) ولغيره من الصحابة.

و(إفادة الحكم) غرض أصلي من أغراض الخبر، حيث ذكر البلاغيون أن الخبر يلقى لغرضيين أصليين هما فائدة الخبر ولازمها، يقول الخطيب: "من المعلوم لكل عاقل أن قصد المُخْبِر بخبره إفادة المخاطب إما نفس الحكم كقولك: (زيدٌ قائمٌ) لمن لا يعلم أنه قائم، ويسمى هذا فائدة الخبر، أما كون المُخْبَر عالمًا بالحكم، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك: (زيد عندك)، يسمى هذا لازم فائدة الخبر"[(٢)]، وذكر السكاكي أن "الأولى بدون هذه تمتنع، وهذه بدون الأولى لا تمتنع"[(٣)]، يقصد أن العلم بلازم الفائدة يقتضي العلم بالفائدة، ويمتنع العكس.

كما ذكر العلماء للخبر أغراضًا بلاغية أُخرى غير إفادة الحكم أو لازمه، تبعًا لكل سياق ومقام، ومنها تلك الأغراض التي حمل عليها الخبر في فاتحة السورة أيضًا، وذهب إليها بعض العلماء، منها (التبشير)، وأن الخبر جاء بشرى للنبي (ﷺ) بالنصر العزيز، والفتح المبين الذي مَنَّ به المولى سبحانه على رسوله ومن معه من المؤمنين؛ لابتهاج النفوس وإرضائها، وإلقاء الخزي والحسرة في نفوس الكافرين.

---

(١) انظر روح المعاني: ج١٣/٢٤٠.
(٢) الإيضاح: للخطيب :ج ١/٦٥,٦٦.
(٣) مفتاح العلوم : للسكاكي ص١٦٦.

ومن الثابت أن البشرى لا تكون إلا بشيء يبهج النفس ويسعد القلب، وهو في السورة الكريمة شيء غيبي لم يحدث بعد، وهو على أشهر الأقوال فتح مكة، بشر به رسول الله(ﷺ) عند انصرافه من الحديبية؛ تسرية لقلبه –عليه السلام–، حيث بشَّره المولى –سبحانه– بالفتح ووعده بنصر متعاقب، وهو ما ذكره الإمام الزمخشري بقوله: " هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله (ﷺ) عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح"(١)، واعتمادًا على ذلك فهو إخبار قصد به البشرى، وتعجيل المسرة للنبي(ﷺ)، ومن معه من الصحابة.

وفي الخبر إشارة إلى تعظيم المولى–سبحانه– لنبيه(ﷺ) وتنويه بإكرامه، وذلك لأن الفتح لم يكن لأحد غير النبي(ﷺ) وقد عظمه المولى–عز وجل– من وجهين أحدهما: (إِنَّا) وثانِيهمَا: (لَكَ) أي لأجلك على وجه المنة."(٢).

وعلى رأي من قال أن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية، يكون الغرض من الخبر هو تعجيل المسرة، وتسلية المؤمنين العائدين من الحديبية، وبشارتهم بحسن عاقبة ذلك الصلح، وأنه سوف يؤدي إلى فتوحات أخرى تالية، وهو بذلك يخرجهم من الشعور بالحزن بسبب صدهم عن الاعتمار بمكة، إلى الانتشاء والفرح بالنصر المؤكد من الله.

كما يدل الخبر على غلبة المؤمنين، وانكسار وهزيمة الكافرين أعداء الملة والدين، وكذلك الإشارة إلى الامتنان بما أنعم الله به على رسوله والمؤمنين من النصر العزيز، والفتح المتتابع.

وبذلك يتبين لنا أن السورة الكريمة افتتحت بهذه المنة وذلك الفضل الذي اختص به المولى –سبحانه وتعالى– رسوله محمد (ﷺ)، وبشره به تسرية لنفسه وإكراما لقدره، ففرح رسول الله (ﷺ) بهذه السورة وما جاء بها من نعم وفضل عليه وعلى المؤمنين، وقد روي عنه (ﷺ) بعد نزولها قوله: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»(٣).

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٣٣٢,٣٣١/٤، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

(٢) مفاتيح الغيب:ج ٦٧/٢٨

(٣) حديث مصعب بن عبد الله الزبيري: لأبي القاسم البغوي (المتوفى: ٣١٧هـ) ص٩٤، المحقق: صالح عثمان اللحام، الناشر: الدار العثمانية – الأردن / عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م

رابعاً: بلاغة التركيب في جملة الخبر:-

قال تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً(١)﴾

افتتح المولى –عز وجل– السورة الكريمة بالإخبار عن أمر غيبي، ومن الثابت أن الأمور الغيبية لا يعلمها إلا الله، ثم يخبر بها من يختص من عباده لأسباب يعلمها، "ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالاً"(١)، و الإيمان بصدق ما يخبر به المولى–سبحانه– يقتضي عدم التأكيد، ولكنه جاء في فاتحة السورة مؤكدًا بـ(إنَّ) والجملة الإسمية وأصل (إنَّا) "(إنّنا) حذفت النون لاجتماع النونات، والنون والألف في «إنّا» في موضع نصب، وفي «فتحنا» في موضع رفع،... و«فتحا» مصدر و«مبينا» نعته"(٢).

والجملة الخبرية بهذا التركيب مؤكدة بعدة مؤكدات، ومن المعلوم أن التأكيد يكون حال التردد أو الإنكار، والمخاطب هو النبيّ (ﷺ)، لا يتوهم منه ذلك فيما يخبره به ربُّه، وبيان ذلك أن التأكيد لا يأتي دائما في حال التردد أو الإنكار، فقد ينزل غير السائل منزلة السائل المتردد، وغير المنكر منزلة المنكر، لوجوه ومقامات كثيرة، منها العناية والاهتمام بالخبر، وصدق الرغبة فيه، ورواجه عند المتكلم، وغير ذلك.

قال السبكي "الذي يظهر ولا ينازع فيه منصفٌ أن تأكيد الجملة يكون لأغراض كثيرة، من جملتها الإنكار وغيره، فربما كان الشخص خالي الذهن وأكد له بإنَّ واللام، و ربما كان منكرًا ولم يؤكد له لغرض ما، أو أكد له لغير ذلك"(٣).

وقد ذكر في توجيه التأكيد بـ(إن) في فاتحة السورة وجوه منها: " أنه قد يجعل غير السائل بمنزلة السائل، إذا قدم إليه ما يلوح له بالخبر(٤)، و أن الملوح

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) ص٢٠١، المحقق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الخامسة، ١٤١٩هـ.

(٢) إعراب القرآن: لأبي جعفر النَّحَّاس (المتوفى: ٣٣٨هـ)،ج١٢٩/٤، علق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.

(٣) عروس الأفراح للسبكي :ج٢٢٠/١.

(٤) انظر شرح السعد :ج٢١٠/١،(ضمن الشروح).

لا يلزم أن يكون كلامًا، وذكر المفسرون أن الرسول (ﷺ) رأى في المنام أنه وأصحابه –رضي الله تعالى عنهم– دخلوا مكة آمنين، فصار المقام مقام أن يتردد في الفتح، فألقي إليه –عليه الصلاة والسلام– الكلام مؤكدًا كما يلقى إلى السائل كذلك"[(١)]، وهو على رأي من قال أن المراد بالفتح هو فتح مكة.

ويجوز أن يكون التأكيد لرد إنكار، بناء على تحققه من المشركين فإنهم كانوا يزعمون أنه (ﷺ) لا يستولي على مكة، كما لم يستول عليها من أراد الاستيلاء عليها قبله (عليه الصلاة والسلام)"[(٢)]

وعلى رأي من قال أن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية، فإنه من غير اللازم أن يكون التردد في الخبر ممن ألقى إليه الكلام، فقد يقع التردد أو الشك من غير المخاطب بالخبر على وجه التعريض، حيث يكون التأكيد في الآية مقصودًا به السامعين من الصحابة ممن تردد في كون ما حدث في الحديبية فتحًا، فقد روي أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– لما نزلت سورة الفتح تساءل قائلا «أَو فتح هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»[(٣)]، باعتبار أنه سيكون سببًا لفتوحات لاحقة.

كما يمكن أن يكون التأكيد لعظمة شأن الخبر، فهو لعظمته مظنة الانكار، فأكد لعظمته لا لرد إنكار[(٤)].

وأميل إلى أنَّ مجيء الخبر في فاتحة السورة مؤكدٌ هو لأهمية الخبر وعظمته، إذ كان لذلك الفتح أثر عظيم على الإسلام والمسلمين، فقد كان النبع الذي انفجرت منه الفتوحات الإسلامية بعد ذلك، وملأت الدنيا بنور الإسلام، ودخل فيه شعوبٌ كثيرةٌ من الشرق والغرب، ولذلك حسن تقويته وتأكيده لعظمته وعظم ما ترتب عليه.

---

(١) روح المعاني للألوسي:ج١٣/٢٤٢

(٢) روح المعاني للألوسي:ج١٣/٢٤٢

(٣) المشيخة البغدادية لابن مَسْلَمَة الدِّمَشْقِيُّ الأموي (المتوفى:٦٥٠هـ)، ص٣٨، ١٦٣ ، تخريج: الإمام زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ، حققه: كامران سعد الله الدلوي، أشرف عليه وراجعه: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.

(٤) انظر السابق:ج١٣/٢٤٠

ومن البين في الآية أن الخبر أكد بأكثرَ من مؤكد منها حرف التوكيد ﴿إنَّا﴾ مع ضمير العظمة، وإسمية الجملة، وتكرار الفعل مرتين، مرة بصيغة الماضي الدال على التحقق، وأخرى بصيغة المفعول المطلق ﴿فتحاً﴾ الدال على التأكيد، والصفة ﴿مبينًا﴾ الدالة على ظهوره وعدم خفائه، قال الإمام البقاعي "ثم زاده تأكيداً بقوله: ﴿فتحاً﴾ وزاد في إعظامه بقوله: ﴿مبينًا﴾"(١)، أي نصرًا واضحًا، وتأييدًا ظاهرًا، أو فتحًا "فارقًا بين الحق والباطل"(٢).

هذا إلى جانب "أنَّ تصديرَ الكلامِ بحرفِ التحقيقِ، فيه من الفخامةِ المنبئةِ عن عظمةِ شأنِ المخبِرِ جلَّ جلالُه وعزَّ سلطانِه ما لا يخفى"(٣).

يقول"﴿إنَّا﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال، ﴿فتحاً﴾ أي أوقعنا الفتح المناسب لعظمتنا، لكل متعلق بإتقان الأسباب المنتجة له من غير شك"(٤)، وفي ذلك تعظيم لشأن الفتح ما فيه، جاء في البحر:" وَأَضَافَ عَزَّ وَجَلَّ الْفَتْحَ إِلَى نَفْسِهِ، إِشْعَارًا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عُدَدٍ"(٥).

ولنتأمل معًا دقة النظم الكريم في اختيار المفردات والألفاظ في بناء جمله الخبر، حيث عبر المولى –سبحانه– بقوله (فتحنا لك) دون (نصرناك)؛ لأن "الْفَتْح هُوَ الْفَصْل بَين الشَّيْئَيْنِ ليظْهر مَا وراءهما"(٦)، فما كان خافيا يصبح واضحًا جليًا، فبالفتح يظهر الدين وينتشر نوره أرجاء الأرض، فلا يخفى على أحد، و" الفَتْحُ: نقيض الإغلاق"(٧)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾(٨)، ويطلق على النصر فهو إلحاق الهزيمة بالعدو، يقال "نَصَرَهُ الله على

---

(١) نظم الدرر:ج١٨/٢٧٧

(٢) روح المعاني : ج١٣/٣٤٤.

(٣)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:ج٨/١٠٣، لأبي السعود العمادي .الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٤) نظم الدرر: ج١٨/٢٧٤

(٥) البحر المحيط: ج٩/٤٨٢.

(٦) الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ص١٥٠، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر

(٧) المحكم والمحيط الأعظم: مادة (فتح).

(٨) سورة الْأَعْرَاف: من الآية (٤٠).

عدوِّه يَنْصُرُهُ نَصْراً"[١]، ويطلق على دخول الغازي بلاد عدوه بعد الحرب، فكأنه يشبه إزالة الغلق عن الباب، ولذلك كثر إطلاق الفتح على النصر المقترن باقتحام أرض المغلوب، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة دون اقتحام أرض، فيقال: فتح خيبر وفتح مكة ،ولا يقال فتح بدر، فمن أطلق الفتح على مطلق النصر فقد تسامح، وقد عطف النصر على الفتح في قوله سبحانه ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [٢]، والعطف يقتضي المغايرة، ولعل الذي سوغ عدّ النصر من معاني الفتح، أن فتح البلاد هو أعظم النصر؛ لأن النصر يتحقق بالغلبة والغنيمة، فإذا كان مع اقتحام أرضِ العدو فذلك نصر عظيم؛ لأنه يكون بعد هزيمة العدو، وعجزه عن الدفاع عن أرضه[٣].

كما جاء التعبير الكريم بصيغة الماضي﴿فتحنا﴾ دون (سنفتح) وهو فعل لم يحدث بعد؛ لتأكيد البشارة، و"تنبيهًا على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع"[٤]، فهو إخبار بإيجاد الفتح، و "وعدٌ به على أبلغ وجه"[٥]، وتأكيد أنه واقع لا محالة، مع تهيئته النفوس وإعدادها لحصوله.

وقال الزمخشري "جيء به على لفظ الماضي على عادة ربِّ العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى"[٦]

كما "يدل على أن الأزمنة كلها عنده تعالى على السواء، وأن منتظره كمحقق غيره، وأنه سبحانه إذا أراد أمرا تحقق لا محالة، وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن، لما عنده من أسبابه القريبة والبعيدة،...، وقال ابن الصدر

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)،مادة (نصر) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ،الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(٢) سورة الصَّف: من الآية (١٣).

(٣) انظر: التحريروالتنوير:ج٢٦/١٤٣,١٤٤.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: ج٢/٩٦.

(٥) حاشية الشهاب:ج٨/٥٢

(٦) الكشاف للزمخشري: ج٤/٣٣٢.

في ذلك: إن اشتمال الكلام اللفظي على المضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المخاطب لا إلى زمان المتكلم"[١].

وإطلاق اسم الفتح على الصلح على طريق الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل، حيث يكون الصلح فتحًا من باب الاستعارة التبعية[٢] "لاشتراكهما في الظهور والغلبة على المشركين فإنهم كما قال الكلبي ما سألوا الصلح إلا بعد أن ظهر المسلمون عليهم"[٣]، فعندما شعروا بقوة المسلمين وخطرهم طلبوا الصلح، فهو فتح لهم.

ومجيء هذا التعبير من قبيل الاستعارة التبعية على ما حققه السيد السند في حواشي المطول([٤])، وبذلك فاستعارة الفعل على وجهين: أحدهما أن يشبه الصلح بالفتح، بجامع ترتب المنافع على كل، ثم يستعار الفتح للصلح، ثم يشتق منه (فتحنا) على طريق التبعية، والثاني أن يشبه الفتح في المستقبل بالفتح في الماضي، في تحقق الوقوع، ثم يستعمل (فتحنا) بمعن سنفتح، وذلك تشبيها للمستقبل المتحقق الحدوث بالماضي "تنبيهًا على تحقق وقوعه. وأن ما هو للوقوع كالواقع"[٥].

وهنا يكون المعنى المصدري وهو الفتح موجودًا في كل واحد من المشبه والمشبه به، لكنه قيد في كل منهما بقيد يغاير الآخر، ولذا "سميت الاستعارة في الفعل والاسم المشتق تبعية؛ لجريانها فيهما تبعًا لجريانها في المصدر"[٦].

ويمكن توجيه الاستعارة هاهنا بوجه آخر، وهو أن يشبه الزمان المستقبل بالزمان الماضي، ووجه الشبه أنه كما أن الثاني ظرف أمر محقق الوقوع، كذلك الزمان الأول، واللفظ الدال على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة، جعل دالًا على الزمان المستقبل مستعملا فيه، ومن البيّن أن المصدر

---

(١) روح المعاني: ج٢٤٣/١٣

(٢) الاستعارة التبعية "هي ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال والصفات المشتقة منها"(مفتاح العلوم) ص ١٨٠.

(٣) روح المعاني:ج ٢٣٩/١٣.

(٤) انظر المطول: ص٣٧٥.

(٥) الايضاح ٩٦/٢.

(٦) السابق:١١١/١.

على حاله لم يتغير معناه، فكانت الاستعارة في الصيغة والهيئة أولى، لأنها الدالة على الزمان الماضي، وبواسطتها كانت الاستعارة في الفعل كما كانت الاستعارة في الفعل بواسطة المصدر"[(١)].

وكذلك على رأى من قال أن المقصود (بالفتح) هو الصلح، يكون إطلاق اسم الفتح عليه مجازًا مرسلًا علاقته السببية، باعتبار أن الصلح كان سببًا في الفتح، وفتوح أخرى، أو آل إليها، فالمجاز في التعبير بالفتح، عن الصلح حيث ذكر المسبب وأراد السبب وليس في صورة الفعل.

وسواء كان التعبير من باب الاستعارة التبعية أو من باب المجاز المرسل فلا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة فيكون استعمال أحدهما في الآخر باعتبار كل نوع من المجاز"[(٢)]، وفي كلٍ يمتاز الأسلوب بالدقة والإيجاز في أداء المعنى المقصود.

ومن الجائز أن يكون إطلاق الفتح الصلح أيضًا من قبيل الاستعارة المكنية، أو على أن يراد خلق الصلح وإيجاده، أو على أن يكون المجاز في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له، فاستعملت في الإسناد إلى غيره، أو على أن يكون من قبيل الاستعارة التمثيلية، والأوجه الأربعة جارية في كل ما كان من قبيل المجاز العقلي([٣])، كأنبت الربيع البقل...، وزعم البعض أن الصلح مما يسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك"[(٤)].

وقد يكون "التعبير بالماضي هاهنا على حقيقته، بناء على أن الفتح مجاز عن تيسيره وتسهيله، وهو مما لا يتوقف على حصول الفتح ووقوعه؛ ليكون مستقبلًا بالنسبة إلى زمن النزول، مثله ألا ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه تعالى بقوله: ﴿يَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [(٥)] أن يسهل أمره وهو خلافته في أرضه

---

(١) انظر: روح المعاني: ج٢٤٢/١٣. و المنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عوني،ج ١٠٩/١، ١١٠، ج٢٤٥/٣، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) انظر: روح المعاني :ج٢٣٩/١٣.

(٣) يرى الخطيب أن الفعل في المجاز العقلي لا بد أن يكن له فاعل إذا أسند إليه يكون الإسناد حقيقة،(الإيضاح في علوم البلاغة ،للقزويني:ج٩٦/١ .

(٤) روح المعاني :ج٢٤٠/١٣.

(٥) سورة طه: الآية (٢٦).

وما يصحبها، وأجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسى﴾[1]، ولم يباشر بعد شيئا، وحمله على الوعد بإيتاء السؤال خلاف الظاهر"[2].

والتعبير بذلك الأسلوب إنما يرتكب في أمر عظيم لا يقدر على مثله إلا من له قهر وسلطان، ولذا فإن أكثر أخبار المولى سبحانه على هذا النهج، والوجه أنّ الفخامة في الأسلوب لدلالته على كمال علمه تعالى، وجلال قدره، حيث استوى عنده الحال والاستقبال، فيقع ما أراده من غير مانع لقضائه، أو تردّد في إمضائه، ويدل ذلك حتمًا على كمال علمه تعالى لابتنائه على كمال إحاطته بجميع أحوال الوجود، وأحوال كل موجود [3]، وهنا نلحظ الكناية عن علو شأن المُخْبِر – سبحانه– وعظمته، إلى جانب عظمة المُخْبَر–عليه السلام– والخَبَر جميعًا.

وأُسند فعل الفتح إلى ضمير المولى –عز وجل– "لاستنادِ أفعالِ العبادِ إليه تعالى خلقاً وإيجاداً"[4].

ومن المتعارف عليه أن "الفعل يسند حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده[5]، فيقال تكلم زيد حقيقة لا تكلم الله وإن أوجد كلامه فيه والفتح الظفر بالبلد وهو صفة العبد قائمة به [6]، فـ"إسناد الفتح المراد به الصلح الذي هو فعل رسول الله (ﷺ) إليه عزّ وجلّ مجاز... وفيه من تعظيم شأن الصلح والرسول –عليه الصلاة والسلام– ما فيه، لا يقال: قد تقرر في الكلام أن الأفعال كلها مخلوقة له تعالى، فنسبة الصلح إليه سبحانه إسناد إلى ما هو له فلا مجاز، لأنا نقول: ما هو له عبارة عما كان الفعل حقه أن يسند إليه في العرف سواء كان مخلوقًا له تعالى أو لغيره عزّ وجلّ، وكيف لا ؟ ولو كان كذلك لكان إسناد جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازًا، وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرهما"[7].

---

(١) سورة طه: من الآية (٣٦).
(٢) روح المعاني: ج٢٤٢/١٣.
(٣) انظر: حاشية الشهاب:ج٥٣/٨.
(٤) روح البيان:ج٩ /٢.
(٥) انظر: عروس الأفراح: للسبكي ، حديثه عن اسناد الأفعال إلى فاعلها:ج٢٢٨/١.
(٦) حاشية الشهاب :ج٥٥/٨.
(٧) روح المعاني:ج٢٣٩/١٣.

والصحيح أن في الكلام مجازًا عقليًا وفيه الاحتمالات السابقة، كما حذف المفعول من جملة الخبر، والسر في ذلك الحذف هو: الدلالة على أن المقصود بالخبر هو التبشير بذات الفتح، وليس القصد إلى فتح معين، وقد يراد بالحذف التعميم ليشمل كل ما فتح الله به على نبيه من فتوحات ذكرت خلال السورة، و أشارت إليها فاتحتها.

وضمير المخاطب في (فَتَحْنا لَكَ) يرجع إلى النبي(ﷺ) ولم يسبق ذكره لكونه معلوما ومقصودا بالخطاب، وقدم لإكرامه والعناية به.

ولفظ ﴿مبين﴾ يدل على ظهور النصر وعدم خفائه، أو أن المولى –سبحانه– فرق به بين الحق والباطل[1].

وقوله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾

بشارة للنبي(ﷺ) عما أعده له من الأجر العظيم، والثواب الجليل، وما فتح له من النعم والخير.

ففي قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ ذكر العلماء في توجيه (اللام) ﴿لِيَغْفِرَ﴾ وجوهًا:

منها: أن (اللَّامُ) هي لام العِلَّة، وقال المبرد (لَامُ) كَيْ، [2]، وهو ما ذكره الزمخشري[3]، وذكر ابن عطية أنها (لَامُ الصَّيْرُورَة)[4]، وهو إخبار عما أعده الله –سبحانه– لنبيه (ﷺ) من الأجر العظيم، فهو خبر من الله جلّ ثناؤه عن جزائه له على شكره على النعمة التي أنعم بها عليه، من

كما ورد أنه "لما لم يظهر وجه تعليل الفتح بالمغفرة؛ جعل الفتح مجازا مرسلا عن أسباب الفتح (ليغفر لك) فالفتح معلول مترتب على الأفعال المؤدية

(١) انظر روح المعاني:ج١٣/٢٤٤.
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ج٥/٥٣، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ، والبحر المحيط لابن حيان (المتوفى ٧٤٥هـ) :ج٩/٤٨٤.
(٣) الكشاف: للزمخشري : ج٤/٣٣٢ .
(٤) انظر فتح القدير للشوكاني:ج٥/٥٣.

الى المغفرة، وأن المغفرة علة حاملة على تلك الأفعال، فصح جعلها علة لما ترتب على تلك الأفعال وهو الفتح، وجعل الزمخشري فتح مكة علة للمغفرة، وهو أوفق للمذهب الحق؛ لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض على مذهبهم، فليست اللام على حقيقتها، بل هي إما للصيرورة والعاقبة، أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائية في ترتبها على متعلقها"[(١)].

وجعل الغفران لما تقدم وما تأخر، كناية عن الإحاطة والشمول لكل ما هو سابق أو لاحق ، وذكر أن المقصود هو "التَّشْرِيفُ بِهَذَا الْحُكْمِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ذُنُوبٌ،"[(٢)].

وجاء الالتفات عن صيغة التكلم بالنون المشعرة بالعظمة إلى صيغة الغائب في قوله سبحانه: ﴿ليغفر لك الله﴾،للإشارة إلى "غاية الكبرياء بالإسناد إلى الاسم الأعظم، إلى أن هذه المغفرة بحسب إحاطة هذا الاسم الجامع لجميع الأسماء الحسنى"[(٣)]، فأسند فعل المغفرة إلى لفظ الجلالة العلم مقام الضمير بغرض التنويه بالمغفرة والعناية بها؛ لأن التعبير بالظاهر أوقع في السمع وأجلب للانتباه.

وقد تكون العلة في مجيء الفاعل اسمًا ظاهرًا، أن هذا الخبر لم يكن الرسول (ﷺ) على علم به، أما إتمام النعمة والهداية فهي معلومة، وإنما أخبر بازديادهما[(٤)].

"وقال الصدر[(٥)]: لا يبعد أن يقال: إن التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على

---

(١) روح البيان :ج٩/٨.
(٢) التحرير والتنوير: ج٢٦/١٤٧.
(٣) نظم الدرر: ج١٨/٢٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير: ج٢٦/١٤٧.
(٥)الصدر هو: "الأديب سعد الدين الفارقي الموقع؛ كان بليغاً منشئاً شاعراً محسناً، توفي كهلاً في سنة إحدى وتسعين وستمائة، ودفن في سفح قاسيون، رحمه الله تعالى"، (فوات الوفيات)،لصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)،ج٢/٤٧ ، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت ،الطبعة: الأولى ١٩٧٤.

عذابه"[1].

و"لما كان الغفران وما بعده يشترك في إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى:﴿وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾[5]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾[6]، وكان الفتح مختصًا بالرسول (ﷺ) أسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيمًا لشأنه، وأسند تلك الأشياء إلى الاسم الظاهر وضميره "[7]، فذكر المولى –سبحانه– لتلك النعم جميعًا، واختصاص النبي بها، فيه تكريم وتعظيم لشأنه وعلو قدره، مع ما يحمل من التبشير بالخير العظيم.

ويمكن أن تكون علة الالتفات من ضمير العظمة مع الفتح إلى الاسم الأعظم مع المغفرة هو "الإيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته، وأن الفتح مما يتولاه –جل شأنه– بالوسائط"[8].

وتقديم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول ﴿ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾للعناية والاهتمام، (وما) تدل على العموم، ولهذا كان التعبير بـ (ما تقدم وما تأخر) كناية عن إحاطة المغفرة وشمولها لكل شيء.

وفي إنعام المولى –سبحانه– على نبيه بالمغفرة الشاملة، كناية عن رفعة قدره (ﷺ)، وعلو منزلته، وما أعده الله لنبيه –عليه السلام– من الأجر العظيم، وعدم مؤاخذته على أي ذنب لو قدر صدوره منه، أو ما يعده الرسول ذنبًا لشدة خشيته من التقصير.

---

(١) روح المعاني:ج ١٣/٢٤٥.
(٢) النساء: من الآية (٤٨).
(٣) المائدة: من الآية (٣)
(٤) البقرة: من الآيات (٤٠، ٤٧، ١٢٢) .
(٥) البقرة: من الآية (١٤٢) .
(٦)الصافات: من الآية (١٧٢).
(٧) انظر: البحر المحيط :ج٩/٤٨٤.
(٨) روح المعاني:ج ١٣/٢٤٥.

وفي قوله ﴿ويتم نعمته﴾:

المقصود بـ "إتْمام النِّعْمة: إعلاء الدين وانتشاره في البلاد، وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه (ﷺ) من النعم الدينية والدنيوية، وإضافتها للمولى – سبحانه– لتأكيد عظمة تلك النعم.

وكذلك إضافة الهداية إليه عز وجل بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ أي: يزيدك الله هديًا، والهداية "التّوفيق الذي يختصّ به من اهتدى"(١).

وهي " دلالةٌ بلطفٍ على ما يوصلُ إلى البغية ولذلك اختصّتْ بالخير"(٢)، "فهي إعلام بأنها هداية تليق بجانبه الشريف سروراً له" (٣).

والتعبير بصيغة المضارع ﴿يهديك﴾ للدلالة على التجدد والحدوث، فهي هداية متجددة ومستمرة في كل عصر ومصر.

وقد ذكر ابن يعقوب أن " الفعل يفيد التجدد؛ لأن أصل وضعه الدلالة على ذلك، لتضمنه للزمان الموصوف بالتجدد وعدم الاستقرار"(٤).

و﴿الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم﴾ "الصِّرَاطُ: الطّريقُ المستقيمُ."(٥)، والمقصود به " دين الله الذي لا يُقْبَلُ من العبادة غَيْرُهُ"(٦)، فهو "حَبْل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، ولا يعوج فيقوَّم، ولا يزيغ فيستعتب"(٧).

وفي التعبير بـ﴿الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم﴾ استعارة أصلية حيث استعير الطريق المستوي الذي لا يتخلله حواجز أو انحناءاتِ، للدين الحق، والمنهج الواضح،

---

(١) المفردات:٨٣٥.
(٢) ارشاد العقل السليم: لابي السعود (المتوفى: ٩٨٢هـ)، ١٨,١٧/١، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٣) نظم الدرر:ج٢٨٢/١٨.
(٤) مواهب الفتاح: ج٢٠/٢.
(٥) المفردات:٤٨٣ .
(٦) تفسير القرطبي:ج١٤٧/١.
(٧) معترك الأقران: ج١٨٤/١.

الذي لا يعتريه شك، ولا تخالطه شبهة، وبه يدرك رضا المولى–سبحانه– وتتحقق الغايات في الدنيا والآخرة.

والمقصود من "اسْتِقَامَةُ الإنسان: لزومه المنهج المستقيم"(١)؛ لأن من يسلك طريقًا مستقيمًا يكون أقرب إلى هدفه وقصده؛ لأنه بين لا يزيغ عنه، ولا يضل سالكه.

وفيه دلالة على عظمة ذلك الطريق؛ لأن الطريق الذي يهدي صاحبه لتحقيق غايته وقصده طريق عظيم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾: وصف (النَّصْرِ بِالْعَزِيزِ) مجاز عقلي علاقته المفعولية، وهو من " إسناد ما هو للفاعل إلى المفعول به"(٢)، لأن العزيز هو النبي (ﷺ) والنصر معز، فهو نصر فيه عزة ومنعة.

ويجوز أن يوصف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر بناء على أحد معاني العزة، وهو قلة الوجود وصعوبة المنال، والمعنى: ينصرك الله نصرا يقل وجود مثله ويصعب مناله"(٣).

والسر في إظهار الاسم الجليل مع النصر العناية به، ودلالته على تحقق النصر الذى نسبه المولى إلى نفسه صراحة؛ لصراحة الاسم الظاهر إلى جانب أن الكلام مع الإظهار أجلب للسمع وألصق بالذهن.

وفي مجيء الاسم الظاهر خاتمة العلل، "قال الصدر: أظهر الاسم في الصدر وهنا لأن المغفرة تتعلق بالآخرة والنصر يتعلق بالدنيا فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله عز وجل هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة.

وقيل أظهر لفظ الجلالة هنا إشارة إلى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى"(٤) وقد قال المولى سبحانه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (٥)، يهبه لمن ارتضى من عباده المخلصين، والمستحقين له ممن يأخذوا بأسبابه.

---

(١) المفردات:٦٩٢.
(٢) بغية الايضاح: ج١/٥٣.
(٣) روح المعاني: ج١٣/٢٤٦.
(٤) انظر: السابق الصفحة نفسها.
(٥) سورة آل عمران: (١٢٦)، الأنفال: (١٠).

تعقيب :

وبعد تلك الجولة في مقاصد ودلالات الأسلوب الخبري في فاتحة السورة يمكن أن نستخلص الآتي :

أولًا : أخبر المولى –سبحانه وتعالى– رسوله الكريم في فاتحة السور بالعديد من الأخبار التي تحمل معاني البشارة، والتكريم، والامتنان بالعطاء الجزيل، والنعم الكثيرة. التي اختصه المولى –سبحانه– بها، ومنها: تكريمه –عليه السلام– بالخطاب، وفي ذلك من التشريف والتعظيم لشأن الرسول–عليه السلام– ما فيه.

ثانيًا : بالرغم من وجازة الأسلوب الخبري في فاتحة السورة، وقلة عدد الألفاظ، فقد دل على العديد من المقاصد والأغراض، منها: إفادة الحكم، والوعد بالنصر، وتعجيل المسرة، وتسلية المسلمين، والامتنان بالعطاء، وتعظيم النبي والتنويه بإكرامه، وغير ذلك من المعاني التي يحملها الأسلوب الخبري، والتي كان أظهرها تبشير النبي(ﷺ) بالفتح المبين والنصر المتتابع.

ثالثًا : جاء الأسلوب الخبري في فاتحة السورة مؤكدًا بأكثر من مؤكد، منها (إن، واسمية الجملة، وتكرار الفعل، وصيغة الماضي، والمفعول المطلق) وقد تعددت آراء العلماء في بيان الغرض من ذلك التأكيد، أوضحها هو عظمة الفتح وأهميته.

رابعًا : جاء النظم الكريم بصيغة الماضي مخبرًا عن حدث غيبي لم يحدث؛ للدلالة على تحققه، وتهيئه النفوس لحصوله.

خامسًا: اشتمل الخبر في فاتحة السورة على العديد من الأساليب، والنكات البلاغية، منها: التأكيد، والحذف، والتقديم، والتكرار، والالتفات، والإظهار في موضع الإضمار، والتعريف، والمجاز، والكناية، بما يظهر بلاغة التعبير القرآني وإعجازه.

سادسًا: دقة النظم الكريم في التعبير عن المقاصد، والأغراض التي يحملها الأسلوب الخبري، إذ أن كل لفظ متمكن في موضعه، دال على المقصود منه بدقة وإحكام .

المبحث الثاني

بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر(ﷺ) في فاتحة سورة عبس[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ:

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾

ورد في فاتحة هذه السورة الإخبار بأمر خفي عن علم رسول الله (ﷺ)، مع الإشارة والتوجيه إلى الأحق والأولى بعنايته واهتمامه(ﷺ)، وهم المقبلون على الدعوة، الراغبون في تعلم الدين ومعرفة مبادئه وأصوله، وتقديم ذلك على جلب المنافع لمن قست قلوبهم، واستغنوا بالحياة الدنيا، وانصرفت عقولهم عن الإيمان، ومعرفة اليقين.

أولًا: مقصود السورة:

افتتحت السورة الكريمة بإخبار النبي(ﷺ) بما خفي عليه من أحوال بعض الناس، وعتابه انشغاله عمن جاءه من المؤمنين ساعيًا خاشيًا راغبًا في تعلم دينه، حيث كان –عليه السلام– حريصًا على هداية من ظن إيمانهم من أهل الشرك، وهم قد استغنوا عنه من أهل الكفر والعصيان.

ثم أخبرت السورة عن جلال قدر القرآن وعظمته، وعظمة حملته، ثم الإخبار عن لعن الكافر والتعجب من إفراطه في الكفر والجحود، ثم الحديث عن خلق الإنسان، وما سخر له المولى–سبحانه– من أنواع النعم والعطايا.

---

(١) سميت هذه السورة بسورة (عبس) ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وذكر أن عدد آياتها: "أَرْبَعُونَ وَقِيلَ: وَآيَةٌ وَقِيلَ: وَآيَتَانِ". انظر: لاتقان في علوم القران للسيوطي:ج٤/٩، (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

ثم الإنذار بحلول الساعة، والتحذير من أهوالها، وانشغال كل نفس بشأنها، وفرارها ممن كانت تكره مفارقته في الدنيا، وانقسام الناس فيها بين مستبشر بعطاء ربه، وآخر مغبر الوجه معاقب بفجوره وكفره.

ثانيًا: مناسبة السورة لما قبلها:

أما عن مناسبة السورة لما قبلها وهي سورة (النازعات)، والتي كان ختامها قوله عز وجل: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾[1]، فقد قصر المولى –سبحانه– إنذار الرسول في الآية على من كان خاشيًا لله متطلعًا إلى هدايته، راغبًا في رضاه، فهو أحق بالإقبال وأولى بالعناية والاهتمام، من هؤلاء المعرضين المعاندين.

ومن ثم فقد جاءت فاتحة سورة (عبس) لتبين من الذي يستجيب لذلك الإنذار، وينتفع به ويستحق الإقبال والاحتفاء، ومن لا يستجيب والأولى تجاهله والإعراض عنه، وإن علت منزلته وسمت مكانته بين قومه، وهم من جاءت فاتحة السورة مصورة حالهم كاشفة عن دخائلهم وما تضمر نفوسهم من كفر وجحود، وهم من كان النبي (ﷺ) منشغلًا بهدايتهم وقت مجيء ابن أم مكتوم(٢) الصحابي الجليل، الذي تشير فاتحة السورة إليه.

"قال الإمام أبوجعفر بن الزبير: لما قال سبحانه: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾[3] وقال بعد: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[4]، افتتحت هذه السورة بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم، وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه لهم فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته"[5].

---

(١) النازعات: الآية (٤٥).

(٢) "يقال اسمه عبد اللَّه، وعمرو أكثر، وهو ابن قيس بن زائدة بن الأصم" انظر: ترجمته في (الإصابة في تمييز الصحابة)، لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) ج٤/٤٩٤,٤٩٥، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ).

(٣) سورة النازعات: الآية(٢٦).

(٤) سورة النازعات: الآية(٤٥).

(٥) نظم الدرر: ج٢١/٢٥٢ .

ثالثًا: الغرض من الخبر في فاتحة السورة:

افتتحت السورة الكريمة بالأسلوب الخبري الذي خرج عن الأغراض الأصلية للخبر إلى غرض آخر يلائم المقام، وهو عتابه –عليه السلام– على توليه عمن هو أولى بالعناية وأحق بالاهتمام ممن أقبل عليه، راجيا تعلم الدين، خاشيًا من التفريط والتقصير، وانشغاله(ﷺ) وحرصه على دعوة هؤلاء المشركين وهدايتهم ؛ لذا كان الخبر عتابا من المولى –سبحانه– لرسوله ونبيه الحبيب محمد(ﷺ)، على الغفلة عن المقصود الأهم، وإرجاء إجابة ابن أم مكتوم لطلبه لوقت لاحق، حتى لا يفوته هداية من يأمُل هدايتهم وهداية مَنْ يتبعونهم.

وكان النبي (ﷺ) عندما جاءه ابن أم مكتوم متسائلًا قد "وكله إلى إيمانه فأغفل فَوْرِيَّة مجاوبته، وشق عليه إلحاحه في السؤال خوفاً من تفلت الآخرة ومضيه على عقبه وهلاكه"[(١)]، فأمره تعالى ألا يتشاغل عن الإقبالِ على أحد من المسلمين الراغبين في تعلم الدين بغيرهم من المشركين، وعاتبه في ذلك عتابًا شديدًا، وهو بهذا "يقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي وحاسم، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها"[(٢)].

ومن البين في ذلك العتاب التأكيد على وجوب إكرام المؤمنين ورفع شأنهم، خاصة أمام الكافرين؛ لتتحقق رهبة المؤمن وعظمته، فيعلى قدره وتسمو منزلته، فالعتاب في الآية يحمل معنى تعظيم المسلم وإكرامه، حيث إن

"حيث أن مناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذي يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، فما وقع في خلال هذا العتاب من ذكر حال المؤمن والكافر إنما هو إدماج(٣)؛ لأن في الحادثة فرصة من التنويه بسمو منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة تؤهله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره جمعا بين المعاتبة والتعليم، على سنن هدي القرآن في المناسبات"(٤).

---

(١) نظم الدرر: ج٢١/٢٥٣

(٢) في ظلال القرآن: لسيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ)،ج٦/ ٣٨٢٢، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.

(٣) "الإدماج، وهو أن يُضمَّن كلام سِيق لمعنى معنًى آخر"(بغية الإيضاح:ج٤/٦٢٥)

(٤)التحرير والتنوير: ج٣٠/١١٤.

كما تشير الآية إلى تكريم المولى –عز وجل– لابن أم مكتوم، وتعظيم شأنه، وأنه الأحق بالسماع والأولى بالإجابة، فهو مؤمن مقبل على تعلم دين الله حريص على اتباع منهجه ومعرفة مبادئه، ولذلك فهو الأكرم عند الله، والأحق بالعناية والإقبال.

وفي الآيات تنويه بضعفاء المؤمنين، وعلو قدرهم، ومنزلتهم عند ربهم ، فهم عند الله خير من أصحاب الغنى والنفوذ الذين أعرضوا عن دينه فضلوا وأضلوا.

وبذلك يتبين أن ما أخبر به المولى –سبحانه– رسوله(ﷺ) من أحوال الناس وأقدارهم هو أمر غيبي، خفي عن علمه(ﷺ) عندما أقبل على دعوة المشرك، وأرجأ إجابة المؤمن، لقصور علم البشر عن معرفة خبايا الصدور وكوامن النفوس وليس في ظاهر حالهما ما يكشف باطنه.

وقد أراد المولى–سبحانه– بذلك الخبر أن يعلم رسوله(ﷺ) أن من تصدى لهم ، وكان حريصًا على هدايتهم، من هؤلاء المشركين لا يرجى صلاحهم ولا يطمع في تقواهم، فقد غفلوا عن طريق الهدى والرشاد، فلم ولن يهتدوا، بخلاف ذلك الذي أرجأ جوابه، فإن المبادرة تجعله يزداد صلاحًا وتقوى، وهو تنبيه من المولى –سبحانه– لرسوله، وإرشاد إلى الأحق والأولى، فالخبر يؤكد على "تَعْلِيم الله رَسُوله (ﷺ) الْمُوَازَنَةَ بَيْنَ مَرَاتِبِ الْمَصَالِحِ وَوُجُوبَ الاستقراء لخفياتها كَيْلا يُفِيتَ الِاهْتِمَامُ بِالْمُهِمِّ مِنْهَا فِي بادىء الرَّأْيِ مُهِمًّا آخَرَ مُسَاوِيًا فِي الْأَهَمِّيَّةِ أَوْ أَرْجَحَ"(١).

كما أن في الخبر تنبيه النبي (ﷺ) على أن يعمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وأن لا يحتقر وحاشاه (ﷺ) من ذلك، ولكن التحذير من هذا وإن لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر"(٢).

وعلى ذلك فإنَّ "هَذِهِ الْحَادِثَةَ منوالٌ ينسج عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ النَّبَوِيُّ إِذَا لَمْ يَرِدْ لَهُ الْوَحْيُ لِيَعْلَمَ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ الظَّوَاهِرِ خَبَايَا، وَأَنَّ الْقَرَائِنَ قَدْ تَسْتُرُ الْحَقَائِقَ"(٣)، ولا

(١) انظر: التحرير والتنوير:ج١٠٢/٣٠ .
(٢) انظر: نظم الدرر:ج ٢٥٣/٢١.
(٣) التحرير والتنوير:ج١١١/٣٠ .

يعلم خبايا الأمور خفاياها إلا الله، وما أخبر به أنبيائه ورسله، فسبحان العليم الخبير بما ظهر وما بطن.

رابعًا: بلاغة التركيب في جملة الخبر:

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (٢) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (٤)﴾

أول ما نلحظ في الأسلوب الخبري في فاتحة السورة قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وهما فعلان ماضيان وفاعلهما ضمير مقدر، وذلك الضمير المقدر ليس له مرجع سابق يفسره أو يدل عليه، وإنما فسر بما جاء بعده من آيات، وغرض ذلك كراهة التصريح بالفاعل من أول الأمر، رحمة به (ﷺ) وإجلالا له، مع التشويق للخبر، والاهتمام به، حيث يشتمل الخبر على حدث له أثره، ينبغي الإشارة إليه، والتنبيه عليه، والالتفات نحوه، مع ما فيه من الإيجاز.

ومن البين أن المولى عز وجل لم يشأ أن يفتتح كلامه بما يتبادر منه أن المقصود بالعتاب هو رسوله الحبيب محمد (ﷺ) ؛ ولذلك جاء العتاب بصيغة الحكاية عن شخص غائب، وفيه إيحاء "بأن الأمر موضوع الحديث لا يحب المولى –عز وجل– أن يواجه به نبيه وحبيبه بأسلوب الخطاب المباشر، تلطفا به"[(١)]، وإشفاقا عليه، ولذا جاء الخبر بصيغة الغائب ليكون أول ما يقرع سمعه (ﷺ) باعثًا على ترقب المعنى من ضميرِ الغائبِ، فلا يفاجئ (ﷺ) بالعتاب، وحتى يقع في نفسِه مُدرَّجا فيكون أخف وقعًا وأهون أثرًا، وهو أسلوب بلغ الغاية في الدقة وملائمة الحال، وقد ورد أن "العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب"[(٢)] اعتمادًا على ذكائه وفطنته.

ثم جاء التعبير الكريم بضمير الخطاب بعد ضمير الغيبة، على طريق الالتفات[(٣)]،لبيان المقصود بالخبر،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن :ج٦/٣٨٢٥.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة :ج١/١٣٩.

(٣) "والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها" (الإيضاح في علوم البلاغة :ج٢/٨٦). ذكر العلوي "أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية دون غيرها، ومعناه في مصطلح علماء البلاغة: هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول"(الطراز :ج٢/٧١)

وهو ما صرح به في قوله: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾[1].

وذكر الإمام الرازي: " أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار "(٢).

وورد أن في "الالتفات إنكار للمواجهة بالعتب، فلا حاجة للاستعانة بالمقام والغيبة، مع أنه ذكر أن في الغيبة والخطاب إجلالاً له (ﷺ)؛ لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره؛ لأنه لا يصدر

ثم فسر الحادث الذي وقع فيه ذلك العُتْب بقوله سبحانه: (أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)، وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) ﴾، وهو يدل على أن المقصود مجيء خاص وأعمى معهود[3].

والمقصود بـ "العُبُوسُ: قُطُوبُ الوجهِ من ضيق الصّدر"[4] وفي الآية كناية عن إظهار الغضب وعدم الرضا.

وكما جاءت (الواو) لعطف فعل التولي على العبوس، وهو من عطف المفردات، للمشاركة في الحكم، واتحاد الفاعل، يقول الإمام عبد القاهر: "واعلمْ أنَّه إذا كان المخبَرُ عنه في الجملتين واحداً كقولنا: "هو يقولُ ويفعلُ، ويَضُرُّ ويَنْفَعَ، ويُسيءُ ويُحْسِنُ.... وأشباه ذلك، ازدادَ معنى الجمعِ في "الواو" قوة وظهوراً، وكان الأمْرُ حينئذٍ صريحاً.

وذلكَ أنَّك إذا قلتَ: "هو يَضُرُّ وينفعُ"، كنتَ قد أفدتَ "بالواو" أنكَ أوجبتَ له الفعلينِ جميعاً، وجعلَته يفعلُهما معاً"[5].

"والتَّوَلِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء"[6]، وهو في الآية استعارة تبعية، حيث صورت اشتغال النبي (ﷺ) بالحديث مع من يرغب في

(١) سورة عبس: الآية (٦).
(٢) مفاتيح الغيب:ج٣١/٥٣.
(٣) انظر التحرير و التنوير:ج٣٠/١٠٤
(٤) المفردات في غريب القرآن:ج ١/٥٤٤.
(٥) دلائل الإعجاز: ٢٢٦.
(٦) المفردات :١/٨٨٦.

إسلامهم، وترك الانتباه للسائل بالتولي، وفيه إيحاء بشدة حرص النبي (ﷺ) على هداية من تصدى لهم إلى طريق النجاة والفوز.

كما نجد الإيجاز بحذف حرف الجر في قوله: ﴿أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى﴾، حيث أَنَّ "(أَنْ) في موضع نصب مفعول له، المعنى: لأن جاءه الأعمى"[1]، فهو "مَجْرُورٌ بِلَامِ الْجَرِّ مَحْذُوفٌ مَعَ أَنْ وَهُوَ حَذْفٌ مُطَّرِدٌ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلَيْ عَبَسَ وَتَوَلَّى عَلَى طَرِيقَةِ التَّنَازُعِ[2]"[3].

وذكر"«أَنْ» بمعنى «إذ»"[4] الدالة على التحقيق، والمقصود هو إنكار ذلك الفعل والعتب عليه فيه.

وفي وصف السائل بـ(الأعمى) ترقيقًا لقلب النبي (ﷺ)، وتوضيحًا لسبب العتاب، وتنبيهًا على أنه أحق بالعناية وأولى بالاهتمام، خاصة وأن من كان في مثل حاله يكون سريعًا إلى ضيق صدره، وانكسار نفسه، كما يشير إلى ما يلائم حاله من الرفق به والإصغاء لما يريد.

كما نلحظ في الآيات انتقال الأسلوب من صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب تدريجيًا، على طريق الالتفات، حيث يبدأ العتاب هادئًا رقيقًا بقوله: ﴿وَما يُدْرِيكَ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)،ج٥/٢٨٣، الناشر: عالم الكتب – بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٢) التنازع لغة: التجاذب، وهو أن يتقدم فعلان متصرفان، أو اسمان يشبهانهما، أو فعل متصرف واسم يشبهه، ويتأخر عنهما معمول غير سببي مرفوع، وهو مطلوب لكل منهما من حيث المعنى. (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)، لابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)ج٢/ ١٦٧، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

وقد "ذهب الكوفيون في إعمال الفعلين، إلى أن إعمال الفعل الأول أولى، وذهب البصريون إلى أن إعمال الفعل الثاني أولى." الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، لكمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ):ج١/٧١، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .

(٣) التحرير و التنوير :ج٣٠/١٠٤.

(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)،ج١٠/٦٨٥.، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (٤)﴾، إذ يقصد بالاستفهام في:(وَمَا يُدْرِيكَ) "التنبيه على مغفول عنه غير معلوم لديه (ﷺ)، وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ يَجْعَلُكَ دَارِيًا، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ مِثْلُهُ لِقَصْدِ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ، قَالَ الرَّاغِبُ: مَا ذُكِرَ مَا أَدْرَاكَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَذُكِرَ بَيَانُهُ بَعْدَهُ"[١].

وقوله: ﴿يزكّى﴾ "الأصل يتزكّى أدغمت التاء في الزاي.....–وكذلك– قوله" يتذكر أدغمت التاء في الذال لقربها منها"[٢] "والتَّذْكِرَةُ: ما يتذكّر به الشيء"[٣]، و"أصل الزَّكَاةِ: النّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة"[٤].

وعطف جملة ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ على جملة ﴿يَزَّكَّى﴾، "أَيْ: مَا يُدْرِيكَ أَنْ يَحْصُلَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ وَكِلَاهُمَا مُهِمٌّ،–والمراد بها–الْقُرْآنُ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِمَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ قَالَ تَعَالَى:﴿وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾[٥] فَقَدْ كَانَ فِيمَا سَأَلَ عَنْهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ"[٦] وذكر ابن حيان أن "الظاهر مصب يُدْرِيكَ عَلَى جُمْلَةِ التَّرَجِّي، والْمَعْنَى: لَا تَدْرِي مَا هُوَ مُتَرَجًّى مِنْهُ مِنْ تَزَكٍّ أَوْ تَذَكُّرٍ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى وَمَا يُطْلِعُكَ عَلَى أَمْرِهِ وَعُقْبَى حَالِهِ"[٧] والفاء في ﴿فتنفعه﴾ للسببية[٨] أي ينتفع بسببها.

وفي ذلك الوصف من التزكية، والتذكر تكريم لشأن ابن أم مكتوم ما أعظمه وأجله من تكريم! بخلاف من لم يتزك، ولم ينتفع بالذكرى، فذلك مغفول عنه لا شأن له، ولا اعتداد به، مع ما في ذلك من مقابلة لطيفة بين الحالين ، توضح مكانة وجزاء كل منهما.

(١) التحرير والتنوير:ج١٠٦/٣٠.
(٢) إعراب القرآن: للنَّحاس:٩٤/٥ .
(٣) المفردات: ٣٢٩.
(٤) السابق:٣٨٠.
(٥) سورة القلم :الآية (٥٢).
(٦) التحرير والتنوير:١٠٧/٣٠.
(٧) البحر المحيط: لأبي حيان،٤٠٦/١٠.
(٨) اعراب القرآن وبيانه:٣٧٥/١٠.

ومن الملاحظ أن نبرة العتاب تشتد شيئًا فشيئًا وينتقل النظم الكريم من التنبيه في الاستفهام إلى التعجب من ذلك الفعل محل العتاب بقوله–سبحانه– ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى! وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى؟! ﴾"[1].

يقال "اسْتَغْنَى عَنِ الشَّيْءِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ"[2]، و "الْمُرَادُ بِ ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾ هُنَا: مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ غَنِيًّا عَنْ هَدْيِكَ بِأَنْ أَعْرَضَ عَنْ قَبُولِهِ؛ لِأَنَّهُ أَجَابَ قَوْلَ النَّبِي(ﷺ) لَهُ: «هَلْ تَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا، بِقَوْلِهِ: لَا والدماء ... » كِنَايَةَ عَن أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ يُرِيدُ وَلَكِنِّي غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾ مَنِ اسْتَغْنَى بِالْمَالِ إِذْ لَيْسَ الْمَقَامُ فِي إِيثَارِ صَاحِبِ مَالٍ عَلَى فَقِيرٍ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنْتَ تَحْرِصُ عَلَى التَّصَدِّي لَهُ، فَجُعِلَ مَضْمُونُ الْجَوَابِ وَهُوَ التَّصَدِّي لَهُ مُعَلَّقًا عَلَى وُجُودِ مَنِ اسْتَغْنَى وَمُلَازِمًا لَهُ مُلَازَمَةَ التَّعْلِيقِ الشَّرْطِيِّ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُبَالَغَةِ"[3].

وأَما قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾:

"فَمَعْنَاهُ تَتَعَرَّضُ لَهُ وتَمِيل إِليه وتُقْبِل عَلَيْهِ، يُقَالُ: تَصَدّى فُلَانٌ لِفُلَانٍ يَتَصَدّى إِذا تَعَرَّض لَهُ، والأَصل فِيهِ أَيضاً: تَصَدَّد يتَصَدَّد. يُقَالُ: تَصَدَّيت لَهُ أَي: أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ"[4].

وتقديم ضمير المخاطب (أنت) على المسند الفعلي قد يكون للتقوية والتأكيد، كأنه قيل: فأنت تتصدى له تصديًا، فيكون العتاب على التصدي، ويجوز أن يكون للاختصاص أي: (فأنت لاغيرك تتصدى له) فيكون من قصر الصفة على الموصوف، ويكون المقصود أن ذلك التَّصَدِّي لا يلِيق بِك، وهذا قريب من قولهم: (مِثْلُكَ لَا يَبْخَلُ)، أي لو تصدى له غيرك لكان هَوْنًا، فأما أنت فلا يتصدَّى مثلك لمثله فمناط الْعتاب هو أنه وقع من النَّبِي(ﷺ) في جليل

(١) انظر في ظلال القرآن :٦/٣٨٢٥.
(٢) اللسان مادة: (غنا)،
(٣) التحرير والتنوير:٣٠/١٠٧(بتصرف).
(٤) اللسان مادة: (صدد).

قدره"[١]، يقول الإمام عبد القاهر: "فإذا عمدْتَ إلى الذي أردتَ أن تحدث عنه فعل، فقدَّمْتَ ذِكرَه، ثُمَّ بنيتَ الفعلَ عليه فقلتَ: "زيد قد فعل" و "أنا فعلت"، و "أنت فعلْتَ"، اقتضى ذلك أن يكونَ القصدُ إلى الفاعلِ"[٢].

والتعبير بـ (التصدي) استعارة تبعية، حيث جعل الإقبال الشديد تصديًا، بجامع الحرص على المقصود في كل.

وجاء قوله ﴿وَما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ "جملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى﴾، وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ" [٣].

قوله:" ﴿أَلاَّ يزكى﴾ مبتدأٌ خبرُه عليك، أي: ليس عليك عَدَمُ تَزْكيتِه"[٤]، وقدم الخبر على المبتدأ؛ لتأكيد نفي مؤاخذة النبي(ﷺ) بعدم اهتدائهم ودخولهم الإسلام، وذلك رحمةً بالنبي (ﷺ) وتلطفًا به؛ ولهذا قصره المولى –سبحانه– على الإنذار قال تعالى ﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ [٥] فلا تكلف نفسك ما لا تملك من الهداية.

و(ما) في قوله:﴿ وما عليك ألا يزكّى﴾ قد يفهم منها النفي أي ليس عليك مؤاخذة في بقائهم على كفرهم، وكأن حرصه –عليه السلام– على هدايتهم خشية أن يكون عليه في عدم إيمانهم ملامة، فبين له أنه سالم من ذلك، كما يجوز أن تكون استفهاماً أي: وأي شيء يكون عليك في عدم تزكيه؟، وفيه إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول"[٦]، مع تحقير شأن الكافر، والحض على الإعراض عنه، وعدم الاهتمام به.

وفي قوله ﴿وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى﴾:

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٠٨/٣٠.
(٢) دلائل الإعجاز: ١٢٨/١.
(٣) التحرير والتنوير: ١٠٨/٣٠
(٤) الدر المصون:٦٨٨/١٠.
(٥) سورة فاطر: الآية (٢٣).
(٦) انظر: نظم الدرر: ٢٥٥/٢١

"(الواو) عاطفة و(أما) حرف شرط وتفصيل،....وجملة يسعى حال من فاعل جاءك والواو حالية"[1].

وَالسَّعْيُ: شِدَّةُ الْمَشْيِ، كُنِّيَ بِهِ عَنِ الْحِرْصِ عَلَى اللِّقَاءِ فَهُوَ مُقَابِلٌ لِحَالِ مَنِ اسْتَغْنَى لِأَنَّ اسْتِغْنَاءَهُ اسْتِغْنَاء الممتعض من التَّصَدِّي لَهُ"[2].

وقوله ﴿وَهُوَ يَخْشى﴾ "جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعلِ «يَسْعى» ، فهو حالٌ مِنْ حالٍ"([3]) "فهي حال متداخلة، والفاء رابطة الجواب"[4] وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ جَاءَ طَلَبًا لِلتَّزَكِّيَةِ، لِأَنْ يَخْشَى اللَّهَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الِاسْتِرْشَادِ"[5].

وحذف المفعول إيجازا للعلم به؛ لأن الخشية لا تكون إلا لله، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد وتكرار الحدوث.

"وجملة (أنت عنه تلهى) خبر (مَنْ) أي تتشاغل، و هو من (لَهَىَ) بكذا يَلْهى أي: تشاغل به، وليس هو من اللهو في شيء؛ لأنه مسند إلى ضمير النبي ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب إليه الفعل من اللهو بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر عنه في بعض الأحيان"[6].

جاء في اللسان "تَلَهَّ سَاعَةً أَي تَشاغَلْ،....والْهَ عَنْهُ وَمِنْهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ. الأَصمعي: لَهِيتُ مِنْ فُلَانٍ وَعَنْهُ فأَنا أَلْهَى. الْكِسَائِيُّ: لَهِيتُ عَنْهُ لَا غَيْرُ، قَالَ: وَكَلَامُ الْعَرَبِ لَهَوْتُ عَنْهُ ولَهَوْتُ مِنْهُ، وَهُوَ أَن تَدَعَهُ وتَرْفُضَه"[7]

وما أجمل تلك المقابلة بين الضدين، والتي تظهر اختلاف حال كل منهما، بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

(١) إعراب القرآن وبيانه:٣٧٦/١٠
(٢) التحرير والتنوير: ١٠٩/٣٠.
(٣) الدر المصون:٦٨٨/١٠.
(٤) إعراب القرآن وبيانه:٣٧٦/١٠
(٥) التحرير والتنوير:١٠٩/٣٠.
(٦) إعراب القرآن وبيانه:٣٧٦/١٠.
(٧) اللسان :مادة (لهى).

فقد ذكر أولًا حال ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾، وجاء في مقابله حال ﴿مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾، وقوله مع ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾، وفي مقابله ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾، وتلك الحال الغريبة، تؤكد العتاب الوارد في فاتحة السورة بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (٢)﴾ ، فالتولي عمن جاء يسعى وهو يخشى، والإقبال على من استغنى حال غريبة، تستلزم العجب منها والعتب عليها .

كما يلاحظ في الآية احتباك[١] حيث إنَّ ذكر الغنى أولاً يدل على الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخشية ثانياً يدل على ضدهما أولاً، وسر ذلك التحذير مما يدعو إليه الطبع البشري من الميل إلى الأغنياء، ومن الاستهانة بحق الآتي إعظاماً لمطلق إتيانه[٢].

وأخيرًا فمن البين أن المقصود من الخبر في فاتحة السورة أعم وأشمل من أن يقصر على حادث فردى أو حالة خاصة بأحد الصحابة، بل هو ترسيخ لمبدأ أقامه الإسلام وحرص دوما على تفعيله ووجوده بين المسلمين، تطبيقًا لقول المولى سبحانه:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣]، فالأكرم عند الله ومن يستحق العناية والاهتمام، هو من أخلص العمل لله خاشعًا قلبه، وإن لم يكن من الوجهاء أو كان فقيرًا مغمورًا.

ومن خلال ذلك يتبين أن العبرة مما ورد في فاتحة السورة هو عدم الأخذ بظاهر أحوال الناس، وأن بعض الأمور قد تخفى ولا يعلم حقيقتها إلا من اختص بعلم الظاهر والباطن، وهو اللطيف الخبير، ولهذا فقد أراد المولى –سبحانه– أن يزيد رسوله علمًا بما لا يدركه علمُهُ البشري، وأحاطه به –سبحانه– "ونَبَّهَهُ إِلَى أَنَّ فِي مُعْظَمِ الْأَحْوَالِ أَوْ جَمِيعِهَا نَوَاحِيَ صَلَاحٍ وَنَفْعٍ قَدْ تَخْفَى لِقِلَّةِ اطِّرَادِهَا، وَلَا

---

(١) الاحتباك: هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل.
ومأخذ هذه التسمية من الْحَبْك، وهو الشدّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فَحَبْكُ الثوب هو سَدُّ ما بين خيوطه من الْفُرَج وشَدُّهُ وإحكامه إحكاماً يمنع عنه الْخَلَل، مع الْحُسْنِ والرونق.(البلاغة العربية: للدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، ص:٢/٥٤، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).
(٢) انظر نظم الدرر: ٢١/٢٥٦.
(٣) سورة الحجرات : من الآية (١٣).

يَنْبَغِي تَرْكُ اسْتِقْرَائِهَا عِنْدَ الِاشْتِغَالِ بِغَيْرِهَا وَلَوْ ظَنَّهُ الْأَهَمَّ"[1]، وذلك هو منهج الإسلام العظيم الذي أراد المولى–سبحانه– أن يعلمه لنبيه ويرسخه لمن يأتي بعده، ومن يتولى أمر المسمين، وذلك عن طريق الأسلوب الخبري في فاتحة السورة .

تعقيب :

ومن خلال البحث في بلاغة الأسلوب الخبري في فاتحة السورة الكريمة يمكن أن نستخلص الآتي:

أولًا : أن الغرض من الخبر في فاتحة السورة هو العتاب على ترك الأولى، وهو والعناية بمن آمن وخشع قلبه من المؤمنين، وحرصه (عليه السلام) على هداية من اختاروا الكفر، واتبعوا طريق الضلال، من غير علم بخبايا نفوسهم، وما تنطوي عليه صدورهم من كفر وجحود، والتأكيد على أن وراء الظواهر ما قد يخفى.

ثانيًا: يؤكد الخبر على وجوب إكرام المؤمنين وتعظيم شأنهم، خاصة أمام الكافرين، لتقع في قلوبهم رهبة المسلم وجلاله أمام الكافر، فتكون دافعًا لدخول ذلك الدين، الذي يعظم تابعيه، ويُكْرِم فقراءه، مع تقديم نفع المسلم، على نفع من لا يرجى صلاحه.

ثالثًا: جاء التعبير القرآني في فاتحة السورة بصيغة الغائب، والمقصود هو النبي (ﷺ) بأول لفظ فيه، بما يؤكد عظمته(ﷺ) وجلاله، وبلاغة التعبير القرآني في تأكيد الحرص على تنزيه النبي (ﷺ) مما عساه أن يقبض نفسه، أو يضيرها.

رابعًا: تلاحم مع الأسلوب الخبري في فاتحة السورة أسلوب الالتفات، حيث برز جليًا في الآيات التدرج في التعبير عن المقصود شيئا فشيئا، وعدم توجيه العتاب للنبي(ﷺ) دفعة واحدة، مع العناية بمضمون الخبر، والتشويق لما يرد فيه.

خامسًا: تآزر مع كل من الخبر والالتفات، العديد من الصور والأساليب البلاغية منها: الحذف، والاستعارة، والعطف، والاستفهام، والتعجب، والشرط،

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/١٠٩.

والمبالغة، والتقديم، والتعظيم، والاعتراض، والكناية ، والاحتباك ، والمقابلة، بما يشير إلى ثراء النظم القرآني بالمعاني والصور البلاغية التي توضح المقصود من الخبر، و يرتبط بها فهم مدلوله.

سادسًا: ومن البين أن المقاطع والآيات في فاتحة السورة بالرغم من وجازتها، وقصر آياتها، فهي متسمة بأسلوب قوي مؤثر، يحمل من الظلال والإيحاءات الكثير من المعاني والدلالات، مع ما يمتاز به من فاصلة متناغمة وسجع جذاب.

سابعًا: كما برز جليًا في صدر السورة ذلك التناغم والتآلف بين المفردات والجمل الواردة في فاتحة السورة، حيث نلاحظ ذلك التوافق البديع بين الأفعال الماضية في قوله:(عبس– تولى – جاءه– تنفعه– استغنى– تصدى)، والمضارعة في قوله: (يدريك– يزكى– يذكر– يسعى–يخشى– تلهى) وما بين بعض تلك الالفاظ من جناس بديع، أحدث جرسًا لطيفًا، وتناغمًا بين المعاني، كان له أثره في جذب الانتباه، وتخفيف وقع ما تحمل معاني الآيات من عتاب.

المبحث الثالث

بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر(ﷺ) في فاتحة سورة (الكوثر)[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾

أولاً: أغراض السورة :

اشتملت سورة الكوثر على وجازتها، وقلة عدد كلماتها وآياتها على العديد من المعاني والمقاصد الدينية والدنيوية، فمن مقصودها ما منحة المولى – سبحانه– لنبيه (ﷺ) من النعم الغزيرة، والعطايا الوفيرة في الدنيا والآخرة، وأنه المعطي لكل خير للمصطفين من رسله، والذي يدل على ذلك ويثبته، اسم السورة (الكوثر)، فهو بمعنى "الْمُفْرِطُ فِي الْكَثْرَةِ"[2]، و "الْعَرَب تُسَمِّي كُل شيء كَثِير فِي الْعَدَدِ وَالْقَدْرِ وَالْخَطَرِ كَوْثَرًا"[3]، والسورة بشارة للنبي (ﷺ) بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، كما أمره المولى –سبحانه– بالصلاة والنحر، شكرًا على نعمه، وأن ذلك العطاء، وتلك المنزلة التي أكرمه المولى بها، هي الخير العميم والشرف الباقي، لا ما يدعيه المشركون من الفخر بالولد الفاني، والمال الزائل.

ثانيًا: مناسبة السورة لما قبلها :

من المناسبة الظاهرة بين فاتحة سورة الكوثر وسابقتها، وهي سورة الماعون، ما ذكره الإمام البقاعي بأن سورة الدِّينِ كانت بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، وكانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم، وسورة الكوثر جاءت

---

(١) المشهور في كتب التفاسير أن اسم السورة هو (الكوثر)، ونَقَل عن البقاعي أنها تسمى بـ (سورة النحر)، واختلف العلماء في أنها مكية او مدنية، وهي مكية عند الجمهور، وعليه أكثر المفسرين، وَهِيَ أَقْصر سور القرآن في عدد الكَلِمَات وعدد الحروفِ.(انظر التحرير والتنوير: ٣٠/٥٧١,٥٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب:٣٢/٣١٣.

(٣) تفسير القرطبي :٢٠/٢١٦.

موضحة لها، كما أن سورة الدِّينِ ختمت بأبخل البخلاء، وأدنى الخلائق المنع، تنفيرًا من البخل، ولهذا ابتدأت الكوثر بأجود الجود: وهو العطاء لأشرف الخلائق ترغيبًا فيه وندبًا إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون"[(١)].

بعد أن نهى المولى–سبحانه– عن البخل بما هو هين أخبر عن العطاء بما هو كثير وعظيم، ليرتدع أهل المنع ويشعروا بقبح فعلهم.

كما بين الإمام الرازي[(٢)] المناسبة بين مضمون السورتين، إذ أن سورة الكوثر كالمقابلة لما قبلها، إذ أن سابقتها وهي سورة الماعون اشتملت على وصف المنافق بأمور أربعة، وجاءت سورة الكوثر بما يقابل تلك الصفات.

كما جعلها أيضًا" كالتتمة لما قبلها من السور، وَكَالْأَصْلِ لِمَا بَعْدَهَا"[(٣)].

المقصود بالكوثر (٤):

ذكر العلماء للكوثر معان متعددة، أورد الإمام القرطبي منها: ستة عشر قولا[(٥)] والمشهور عند السلف والخلف منها: أنه نهر في الجنة، وهو أصحّها؛ لأنه ثابت عن النبي صلّى الله عليه وسلم نصا[(٦)].

---

(١) انظر(نظم الدرر): ٢٨٧/٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب : للرازي :ج٣٠٧/٣٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ج٣٠٨/٣٢.

(٤) قيل: هو نهر في الجنّة يتشعّب عنه الأنهار، وقيل: بل هو الخير العظيم الذي أعطاه النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وقد يقال للرّجل السّخيّ: كَوْثَرٌ، ويقال: تَكَوْثَرَ الشيءُ: كَثُرَ كَثْرَةً متناهية،(المفردات في غريب القرآن،ص٧٠٣)، "وهو فوعل من الكثرة والواو زائدة مثل كوسج ونوفل" (إعراب القرآن وبيانه: ج٥٩٦,٥٩٥/١٠).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ج٢١٦/٢٠.

(٦) ورد في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}،ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ "=

كما ورد أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد(ﷺ)؛ لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة، فيمكن حملها على الكل[1].

ثالثاً: الغرض البلاغي للخبر في فاتحة السورة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾

افتتحت السورة الكريمة بخطاب المولى –سبحانه – لرسوله الكريم، وإخباره بالخير الكثير، والعطاء العظيم، بقوله:﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر﴾، "أي نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة"[2] بشرى لك، وتسرية لنفسك، وتطيبًا لخاطرك، مما عساه أن يكون أصابها من ضيق بسبب قول بعض أهل الشرك: هو أبتر، فكان ذلك العطاء تكريماً لمقامك الرفيع، وتشريفًا لمنزلتك العالية، قال تعالى:﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨)﴾[3].

وقد جاءت السورة بشارة للنبي بما أكرمه المولى به من عطايا ونعم؛ تكريما له، وبيانا لمنزلته عند ربه "ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه(ﷺ) بالرّوح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه"[4].

كما أن في السورة "إشارة إلى بشارة أخرى كأن قيل: إنا هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود، فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية؟[5]، فهي بشارة بالأجر العظيم، والثواب الجليل لنبيه الكريم (ﷺ)، قبل وخلقه وبعده.

=(المسند الصحيح):للإمام مسلم (المتوفى: ٢٦١هـ):ج١/٣٠٠، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ج٣٢/٣١٦.

(٢) صفوة التفاسير:ج٣/٥٨٥، محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة

الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(٣) سورة يونس: آية (٥٨).

(٤) في ظلال القران:ج٦/٣٩٨٧.

(٥) روح المعاني:ج١٥/٤٨٠.

وإلى جانب ذلك نجد التشريف والتكريم بالخطاب المباشر من المولى –عز وجل– لرسوله ومصطفاه محمد(ﷺ)، وتبشيره بعطائه وإكرامه، فهو دليل على منزلته، وقدره عند ربه، فالسورة تشريف له–عليه السلام–، وتثبيت لنفسه، وربط لقلبه، وتبشيره بالفضل والنعمة والغلبة.

رابعاً: بلاغة التركيب في جملة الخبر:-

قال تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾

افتتحت السورة الكريمة بعدة مؤكدات حيث صدرت بـ (إنَّ) المؤكدة، و"أصل (إنَّا) إننا حذفت إحدى النونات لِاجْتِمَاع الْأَمْثَال"[(١)]، ومجيء الخبر مؤكدًا يدل على الاهتمام بشأنه، والعناية بمضمونه، والمخاطب هو النبي(ﷺ) لا ينتابه ريب، ولا يعتريه شك في اخبار ربه وبشارته، ولهذا فإن التأكيد في الآية يدل على عظمة الخبر وأهميته، كما يدل على جلال المُخْبِر، وشرف المُخْبَر.

وفيه تنبيه على عظمة العطية؛ لأن الواهب هو الله –جل جلاله–، والموهوب له أشرف الخلق وأكرمهم، والهبة وهي الشيء المسمى بالكوثر والدال بلفظه ومعناه على المبالغة في الكثرة، وبهذا فقد أشعر الخبر عظمة كل من المُعْطِي والمُعْطَى والعَطَاء، فما أجلها من نعمة، وما أعظمه من عطاء.

والتأكيد بـ (إنَّا) إلى جانب كونه دالا على العناية بشأن الخبر "قيل: هو مثله في نحو قوله تعالى[(٢)]﴿وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾"[(٣)]، وذلك بتنزيل غير السائل منزلة السائل، حيث ينزل منزلة السائل للاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعدًا[(٤)] لدى السامع لعظم شأنه، وهو من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذكر الدسوقي "أن غير السائل المنزل منزلة السائل ليس

(١) مشكل إعراب القرآن : لمكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)،ج٢/٨٤٨، المحقق: د. حاتم صالح الضامن الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٥.
(٢) سورة المؤمنون : (٢٧).
(٣) روح المعاني:ج١٥/٤٨٢
(٤) انظر هامش الايضاح :ج١/٧٢.

عنده تردد ولا طلب بالفعل وإلا كان تخريج الكلام ليس على خلاف مقتضى الظاهر بل المراد أنه من حيث الكلام الذي ألقي إليه بمظنة التردد والطلب"[1].

والبلاغيون يشيرون إلى أن الخبر يؤكد من أجل العناية بشأنه لكونه أمرًا عظيمًا في ذاته، و ويجوز أن يكون تأكيد الخبر لرد استبعاد السامع لكون العطاء في غاية الكثرة، أو لرد إنكارٍ، وقد جعله الإمام البقاعي مؤكدا "لأجل تكذيبهم"[2]، وذلك لعظمة ما أُخبر به (ﷺ)، فقد يكذبه المكذبون وينكرونه عليه(ﷺ) لعظمته، فأتى به المولى عز وجل مؤكداً موثقاً، وقد يكون لمراعاة ذلك كله.

كما جاء الضمير بصيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك؛ لأن ضمير العظمة يشعر بعظمة العطاء وكثرته، تبعا لعظمة المعطي وجلاله.

وذكر الإمام الرازي في دلالة الضمير أمرين، الأول– أنه قد يراد به الجمع، والآخر– أن يراد به التعظيم، وفسر دلالته على الجمع، بأن تكون هذه العطية مما سعى في تحصيلها الملائكة والأنبياء المتقدمون، ولا يحمل الضمير على الجمع إلا على ذلك التفسير لقيام الدليل القاطع على وحدانية الله.

وأما دلالته على التعظيم فهو للتنبيه على عظمة العطية؛ لأن الواهب هو جبار السموات والأرض[3]، والثاني منهما هو الأنسب للغرض والأليق بالمقام.

كما بني فعل الإعطاء في النص الكريم على المبتدأ من أجل تقوية الحكم وتأكيده؛ لأن تقديم الاسم يشير إلى الإخبار عنه بأمر ما، ويصبح السامع مشتاقا إلي معرفته، فإذا ذُكِرَ لاقى نفسا مهيأة إلي قبوله، وتمكن واستقر، فيكون أبلغ في التحقيق وأنفى للشك، خاصة إذا كان الخبر عظيم الشأن وجليل القدر كهذا الخبر.

وقد نبه الإمام عبد القاهر على ذلك بقوله: "أنك أردتَ أن تُحقِّق على السامع أَنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذِكْره، وتَوَقُّعِه أوّلاً،

(١) حاشية الدسوقي : ج١/٢١١.
(٢) نظم الدرر:ج٢٢/٢٨٨
(٣) انظر مفاتيح الغيب:ج٣٢/٣١٠.

ومِنْ قَبْلِ أن تَذكر الفعلَ في نفسه، لكي تُباعِدَه بذلك من الشُّبْهة،.... أَوْ مِنْ أن يُظَنَّ بك الغَلطُ أو التزيُّدُ"(١).

وذكر أيضًا أنه "لا يُؤتى بالاسم مُعَرَّى منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، .....–فإذا– عُلم ما جئتَ به، وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإعلام فيه، دخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقلبه قبول المهيأ له، المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكَّ، وأدخلُ في التَّحقيق.....فليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له"(٢).

ولذلك تزداد الحاجة إلى التأكيد إذا كان المخبر به شيئا عظيما، يقع فيه شك أو الإنكار، والسورة الكريمة من هذا الباب لعظم ما ورد فيها من نعم، فتقديم ضمير العظمة في فاتحة السورة، يمنع الشك، ويثبت العطاء، ويدعوا إلى اليقين.

و يجوز أن يكون بناء الخبر على المبتدأ للتخصيص(٣)، وهو ما وضحه الإمام عبد القاهر أيضًا بقوله "أن يكون فِعْلاً قد أردتَ أن تَنُصَّ فيه على واحدٍ فتجعلَه له، وتزعمُ أنه فاعلُه دونَ واحدٍ آخرَ، أو دونَ كلِّ أحدٍ"(٤).

كما ورد النص الكريم بقوله –سبحانه–: "(أَعْطَيْناكَ) وَلَمْ يَقُلْ أَعْطَيْنَا الرَّسُولَ أَوِ النَّبِيَّ أَوِ الْعَالِمَ أَوِ الْمُطِيعَ، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ ذَلِكَ لَأَشْعَرَ أَنَّ تِلْكَ الْعَطِيَّةَ وَقَعَتْ مُعَلَّلَةً بِذَلِكَ الْوَصْفِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿أَعْطَيْناكَ﴾ عُلِمَ أَنَّ تِلْكَ الْعَطِيَّةَ غَيْرُ مُعَلَّلَةٍ بِعِلَّةٍ أَصْلًا، بَلْ هِيَ مَحْضُ الِاخْتِيَارِ وَالْمَشِيئَةِ"(٥)، وفي ذلك إشارة إلى أن عطاء الله هو منحة من الله يعطيها لمن يشاء من عباده، وأن عطاءه لاحدَّ له.

وإذا كان " كثير الرئيس أكثر من كثير غيره، فكيف بالملك؟ فكيف بملك الملوك؟ فكيف إذا أخرجه في صيغة مبالغة؟ فكيف إذا كان في مظهر

(١) دلائل الاعجاز :١٢٨,١٢٩
(٢) المصدر السابق: ص ١٣٢.
(٣) روح المعاني :ج١٥/ ٤٨٠.
(٤) دلائل الاعجاز: ص١٢٨.
(٥) مفاتيح الغيب :٣٢/٣١١,٣١٢

العظمة؟ فكيف إذا بنيت الصيغة على الذي له العلو والغلبة؟ ...–وهنا– اجتمع لك الغبطتان: أشرف العطاء من أكرم المعطين وأعظمهم".[١]

كما جاء التعبير الكريم بقوله –جل وعلا– ﴿أَعْطَيْناكَ﴾ولم يقل (آتيناك)؛ لأن "في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء، ويؤيده قوله تعالى:﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الكَوْثَرَ﴾، فإنه كان له منع من شاء، منه كالمالك للملك، وأما القرآن فحيث إنَّ أمته مشاركون له في فوائده، ولم يكن له منعهم منه، قال:﴿ وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٢]، كما تكون "الْعَطِيَّة من غير معاوضة"[٣]، أورد الإمام الرازي[٤] أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجبًا وأن يكون تفضلًا، أما الإعطاء فهو بالتفضل أشبه، وأن الإعطاء يستعمل في القليل والكثير، قال تعالى: ﴿وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى﴾ [٥]، أما الإيتاء فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم قال تعالى: ﴿وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [٦]، وبهذا فإن قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ﴾ يدل على تعظيم الرسول (ﷺ) من حيث أن ذلك العطاء كالشيء القليل بالنسبة لما هو مدخر لك من الدرجات العالية، فهو يتضمن البشارة بأشياء هي أعظم من المذكورة في السورة، وإشارة إلى أن المُعْطَى وإن كان كثيرا في نفسه، فهو قليل بالنسبة إلى شأن النبي (ﷺ)، وما أعده الله له من نعم.

كما أُثِر التعبير بصيغة الماضي ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ دون (سَنُعْطِيك)، لأنه وعدٌ بما هو محقق الوقوع، مبالغة في تحققه، ويؤكد "تعظيم الإعطاء، وأنه أمر مرعي لم يترك إلى أن يفعل"[٧].

وإلى جانب ذلك جاء التعبير القرآني بلفظ (الكوثر)، والذي يدل بلفظه ومعناه، على الكثرة المفرطة، لجريانه على القاعد المشهورة بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا، يقول الإمام الزركشي: "وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّفْظَ إِذَا كَانَ عَلَى

(١) نظم الدرر:٢٢/٢٨٨
(٢) سورة الحجر، الفروق اللغوية : ٨٧,٨٦.
(٣) المصدر السابق : ص١٦٩.
(٤) مفاتيح الغيب:ج٣٢/٣١٢
(٥) سورة النَّجْمِ: (٣٤).
(٦) سورة البقرة:(٢٥١).
(٧) روح المعاني:ج١٥/٤٨٠.

وَزْنٍ مِنَ الْأَوْزَانِ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى وَزْنٍ آخَرَ أَعْلَى مِنْهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ مِنَ الْمَعْنَى أَكْثَرَ مِمَّا تَضَمَّنَهُ أَوَّلًا؛ لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ أَدِلَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي فَإِذَا زِيدَتْ فِي الْأَلْفَاظِ وَجَبَ زِيَادَةُ الْمَعَانِي ضَرُورَةً"[1].

و قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾: اعْتِرَاضٌ[2]، و(الفاء) للتعقيب[3]، وهو تنبيه على أن شكر الله على عطائه ونعمه يجب على الفور لا التراخي، وفي الآية إشارة إلى أن عطاءه تبارك وتعالى سابق عبادته، وذلك فضل الله، وإكرامه لرسله وأصفيائه، والمراد هو أمر النبي(ﷺ) بالدوام على إقامة الصلاة، ونحر الإبل، وأن يقابل هذه النعمة بشكر المولى بجميع العبادات البدنية والمالية، تعظيمًا وامتنانا للمولى سبحانه.

كما ورد أن (الفاء) "تفيد السببية غالبا إن عطفت جملة، أو صفة"[4]، وعليه جاء تفسير الإمام الرازي"[5] أنها أفادت سببية أمرين: أحدهما: سببية العبادة الناشئة عن كثرة الإنعام، والآخر: سببية ترك المبالاة بقولهم (أبتر) لاشتغاله –عليه السلام– بشكر الله على عطائه لا بقولهم.

وكما آثر التعبير القرآني المعجز قوله ﴿فَصَلِّ﴾[6]، ولم يقل (فاشكر)، والملائم للنِّعمة هو الشُّكر، لسببين الأول: أن الصلاة مشتملة على معاني الشكر وزيادة.

(١) البرهان في علوم القرآن: للزركشي ، ج٣/٣٤.
(٢) التحرير والتنوير:ج٣٠/٥٧٣,٥٧٤.
(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ)،ص٦١، المحقق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.
(٤)الجني الداني في حروف المعاني : ٦٤.
(٥) مفاتيح الغيب :ج٣٢/٣١٩.
(٦) " والمراد بالصلاة عند أبي مسلم الصلاة المفروضة. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك وأخرجه الأول وابن المنذر عن ابن عباس، وذهب جمع إلى أنها جنس الصلاة. وقيل: المراد بها صلاة العيد "(روح المعاني:ج١٥/٤٨٠).

الثاني: أنه لو قال–سبحانه– (فاشكر) لأوهم ذلك أنه (ﷺ) ما كان شاكرا، وقد كان –عليه السلام– من أول أمره (شاكرًا) لربه، أما الصلاة فإنما عرفها بالوحي[1].

و من البين أن مقتضي الظاهر في الآية أن يقال: "﴿إنا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لَنَا وَانْحَرْ﴾، ولكن التعبير القرآني عدل عن ضمير العظمة إلى الاسم الظاهر المضاف إلى ضميره بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ لفوائد منها :

مجيئ الأسلوب على طريق الالتفات من التكلّم إلى الغيبة لما في لفظ (الرَّب) من الحث و الترغيب على أداء ما أمر به النبي(ﷺ) على الوجه الأتم، وهو ما لا يفهم من الضمير، مع ما في لفظ (الرب) من الدلالة على المهابة والعظمة.

كما أن قوله –سبحانه– ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قول: (فَصَلِّ لِلَّهِ) ، لما يشعر به لفظ(الرَّبِّ) من استحقاقه –سبحانه– العبادة والصلاة لأجل ربوبيته، وسابق عطائه، فهو من تولاه بالرعاية والعناية، والأمر بالصلاة وكونها (لربك) هو للترغيب والتحبيب، مع التصريح بالتوحيد، وإفادة أن العبادة لا تقع إلا شكرًا، فقال تعالى: ﴿لربك﴾ أي: المحسن إليك بذلك سرًا وعلنًا[2].

وفي إضافة لفظ (الرَبِّ) إلى ضمير المخاطب وهو النبي (ﷺ) تشريف وتعظيم لشأنه.

واللام في ﴿لِرَبِّكَ﴾ تدل على اختصاص المولى –سبحانه– بصلاته وعبادته، فلا يصلى لغير الله، وفيه تعريض بالمشركين الذين يصلون للأصنام ويعبدونها من دون الله تعالى .

وفي قوله ﴿وَانْحَرْ﴾ إيجاز بالحذف، لدلالة ما قبله عليه، والتقدير(فَصَلِّ لِرَبِّكَ، وَانْحَرْ لِرَبِّك) [3].

(١) انظر مفاتيح الغيب :ج٣٢/٣١٧.
(٢) انظر نظم الدرر:ج٢٢/٢٩٠.
(٣) التحرير والتنوير:ج٣٠/٥٧٤,٥٧٥

والوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين ، فالجملتان إنشائيتان لفظاً ومعنى، والجامع بينهما اتحاد المسند إليه، وتناسب المسند، وهو (الصلاة، والنحر) طاعة لله .

وخصة الصلاة بالذكر؛ لأنها أساس العبادة، وهي جامعة لجميع العبادات والطاعات، وكذلك (النحر)، لكونه امتثالا لأمر الله وطاعته، وهو "غاية الكرم عند العرب"[(١)] .

و في ختام السورة جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[(٢)]
وفيه وصف لذلك المنافق الأثيم بأنه هو الأبتر المنقطع الأثر، أما النبي (ﷺ) فيبقى له الذكر الموصول إلى يوم القيامة.
وهي جملة مستأنفة مؤكدة، وقد فصلت عن سابقتها للاستئناف البياني؛ لكونها ردًا على كلام سابق، وهو قول ذلك المنافق (أبتر)، فهي تعليل لما يفهم من الكلام.
والآية تشتمل على أسلوب قصر طريقه (ضمير الفصل)، يدل على أن المقصود بـ(الأبتر) هو شانئك[(٣)] لا أنت يا محمد، وهو قصر قلب؛ لأن ضمير الفصل (هو) يدل على قصر تلك الصفة على شانئ النَّبِي(ﷺ)، لا عليه، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وبلاغة القصر تكمن في تأكيد فضل الرسول(ﷺ) وعلو شأنه ، مع ضعة شانئه ؛ فهو جملة في قوة جملتين، مع ما فيه من البلاغة والإيجاز.
"وأصل البتر: القطع وشاع في قطع الذنب، وقيل لمن لا عقب له: أبتر على الاستعارة، شبه الولد والأثر الباقي بالذنب، لكونه خلفه فكأنه بعده، وعدمه

---

(١) نظم الدرر:ج٢٢/٢٨٧
(٢) "وَمَعْنَى الْأَبْتَرِ فِي الْآيَةِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ وَهُوَ رَدٌّ لِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ أَوْ غَيْرِهِ فِي حَقِّ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِهَذَا الْمَعْنَى اسْتَقَامَ وَصْفُ الْعَاصِي أَوْ غَيْرِهِ بِالْأَبْتَرِ دُونَ الْمَعْنَى الَّذِي عَنَاهُ هُوَ حَيْثُ لَمَزَ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ أَبتر، أَي لا عقب لَهُ لِأَنَّ الْعَاصِيَ بْنَ وَائِلٍ لَهُ عَقِبٌ، فَابْنُهُ عَمْرٌو الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ، وَابْنُ ابْنِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ وَلِعَبْدِ اللَّهِ عَقِبٌ كَثِيرٌ. قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي «الْجَمْهَرَةِ» عَقِبُهُ بِمَكَّةَ وَبِالرَّهْطِ" التحرير والتنوير:ج٣٠/٥٧٦
(٣) ورد "شَنِئْتُهُ: تقذّرته بغضا له ... والمراد: بغيض قوم" (المفردات: ص٤٦٥).

بعدمه"[1]، وذلك اللفظ يستعار لمن انقطع أثره، ولا يرجى بقاء خيره، تشبيهًا بالدابة المقطوع ذنبها، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، ويدل على أنه لا خير فيه، ولا بقاء لأثره .

وقد ورد في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ»[2].

وجيء بصفة (الأبتر) في الآية محاكاة لقول القائل (محمد أبتر)، إبطالا لذلك القول، وهو ما يسمى بالأسلوب الحكيم، وهو من خروج الكلام على خلاف المقتضى، وقد عرفه الخطيب بقوله: "وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ؛ تنبيها على أنه الأولى بالقصد"[3]، وذلك بصرف مراد القائل إلى ما هو أولى بالاعتبار، وأجدر بذلك الوصف، ، فليس الأبتر الذي لا ولد له؛ لأن ذلك لا ينقص قدره ويغض شأنه، وإنما الأبتر هو من عدم الخير، ونقص في خلائقه وعقله.

وبذلك فإن المقصود هو نفي وصف الأبتر عن النبي(ﷺ)، ولكن بمعنى غير المعنى الذي قصده المتكلم، وهو أنّ الأبتر عديم الخير والذِّكر، وهو شانئك لا أنت.

وفي" التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة، وعمم هذا الشيخ –عليه الرحمة– كلا من جزأي الجملة، فقال: إنه سبحانه يبتر شانيء رسول الله (ﷺ) من كل خير "[4].

ومن البين تلك المطابقة الرائعة بين أول السورة وآخرها حيث طابق بين لفظي {الكوثر والأبتر} "فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير[5]، وذلك؛ لأن " أَنَّ الْعَدُوَّ وَصَفَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَنَفْسَهُ بِالْكَثْرَةِ وَالدَّوْلَةِ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْعَزِيزُ مَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ،

---

(١) روح المعاني:١٥/٤٨٢

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ):ج١٤/٣٢٩، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(٣) الايضاح :ج٢/٩٤.

(٤) روح المعاني:ج١٥/٤٨٢

(٥) صفوة التفاسير:ج٣/٥٨٦

وَالذَّلِيلُ مَنْ أَذَلَّهُ اللَّهُ، فَالْكَثْرَةُ وَالْكَوْثَرُ لِمُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَالْأَبْتَرِيَّةُ وَالدَّنَاءَةُ وَالذِّلَّةُ لِلْعَدُوِّ، فَحَصَلَ بَيْنَ أَوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا نَوْعٌ مِنَ الْمُطَابَقَةِ لِطَيْفٌ"[1]، وإذا جعلنا ضمير العظمة(إنَّا) في أول السورة يقابله الضمير (هو الأبتر) في آخرها، يكون في السورة مقابلة اثنين باثنين، ولا يخفى ما في ذلك من توضيح للمعنى، وجلاء للغرض المقصود من السورة، وهو رفعة شأن الرسول، وعلو مكانته عند ربه الذي وهبه العطاء الكثير، والخير العميم، والذكر الموصول في الدنيا والآخرة، وضعة شانئه، وحقارته.

كما أن السورة كلها مقابلة رائعة لسابِقتها، حيث قابل في هذه السورة أربعًا بأربع من سورة الدين، وبيان ذلك أن في وصف المنافق بالبخل في سورة الدين والمقصود بقوله: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾[الْمَاعُونِ: ٢، ٣]، يقابله العطاء الكثير في سورة الكوثر، وهو قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وكذلك ترك الصلاة، والسهو عنها بقوله:﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، يقابله الأمر بالدوام عليها، وعدم التشاغل عنها بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾.

ثم المراءاة في الصلاة بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ﴾ [الماعون: ٦]، يقابلها قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي خاصة لربك، وليس لمراءاة الناس.

ثم المنع بقوله:﴿وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ﴾ [الْمَاعُونِ: ٧] يقابله الإعطاء بقوله:﴿وَانْحَرْ﴾[2] وبهذا يكون في السورة مقابلة أربعة بأربعة أخرى في السورة السابقة، وهي المقابلة بين البخل والإعطاء، وبين إضاعة الصلاة والأمر بها، وبين الرياء والتخصيص بالرب، وبين منع الزكاة والأمر بالنحر، فبين السورتين ارتباط وسيق و تناسب عجيب.

تعقيب:

من خلال ما سبق يمكن أن نستخلص ما يلي:-

١- تعد سورة الكوثر أقصر سور القرآن الكريم من حيث عدد الكلمات والحروف، وهي مع إيجازها فقد دلت على الكثير من المعاني والمقاصد.

(١) مفاتيح الغيب :ج٣٢/٣٢٢

(٢) مفاتيح الغيب:٣٢/٣٠٧.

٢- افتتحت السورة الكريمة بالأسلوب الخبري الذي قصد به تبشير النبي (ﷺ) بالعطاء الجزيل، والذكر الموصول، مع تعظيم شأنه عليه السلام تكريمه في الدنيا والأخرة، إلى جانب ما في السورة من إخبار عن أمور وأحوال غيبية، هي من أسرار إعجاز القرآن وعظمته.

٣- ورد الأسلوب الخبري في فاتحة السورة مؤكدًا بعدة مؤكدات منها: (إنَّ) المؤكدة والمضافة لضمير العظمة، مع التعبير بصيغة الماضي (أعطيناك)، ولفظ (الكوثر) الدال بزيادة مبناه، على الكثرة المفرطة، حيث وردت جميعا لتأكيد الخبر، والدلالة على عظمته، وعظمة المُخْبِر، والمُخْبَر معًا.

٤- تآزر مع الأسلوب الخبري في أداء الغرض كل من: الالتفات، والتعبير بالاسم الظاهر موضع الضمير، وطريق الفصل والوصل، وقصر القلب، والأسلوب الحكيم، والمقابلة سواء كانت مقابلة بين فاتحة السورة وخاتمتها، أو بين السورة وسابقتها، وما له من أثر في توضيح المعنى، وبيان الاختلاف بين كلا الحالين، بما يؤكد أن ألوان البديع ليست حلية أو زينة لفظية وحسب، بل قد يبنى عليها المعنى بأكمله.

٥- جاءت ألفاظ السورة متناغمة، بما لها من سجع جذاب، وجرس متآلف، بين كل من: (الكوثر –انحر – الأبتر)، مع دلالة العبارات على المقصود في إيجاز بديع محكم، هو غاية الدقة والإعجاز.

الفصل الثاني

بلاغة الخبر في فواتح السور في خطاب سيد البشر(ﷺ) في الأمور التشريعية

من المعلوم ضرورة أن المولى –سبحانه وتعالى– هو الحاكم المشرع لأحكام الدين ومسائله، والرسول –عليه الصلاة والسلام– هو المبلغ له والأمين عليه، قال تعالى :﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى﴾(١) ٠

وقد كانت تلك الأحكام والتشريعات التي أخبر بها النبي(ﷺ)، من الأدلة الظاهرة على إعجاز القرآن الكريم، وأنه كتاب الله المنزَّل على نبي أُميٍّ ليس له سابق علم بقوانين، أو نظم تشريعية، قبل نزول هذا الكتاب الرباني المعجز ٠

ومن البين أن تلك الأحكام التي شرعها المولى –سبحانه وتعالى– تمثل العدل المطلق لكل البشر، فهي شريعة مكتملة الأركان، راسخة المبادئ، لا يتغير ثابتها ولا يتبدل، باقية ما بقيت السماء والأرض، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (٢) ٠

وقد احتوت الشريعة الإسلامية على جانبين هما أساس التشريع وأصل الأحكام:

١–جانب إلهي: وهو الذي نصًا عليه القرآن نصًا لا يقبل التأويل، كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٣)، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾(٤)وهي نصوص صريحة وثابتة، لا تغيير فيها ولا اجتهاد ٠

ومثله في الحكم ما وضحه وبينه النبي (ﷺ) من حل أو حرمة، ولأن الله سبحانه أمرنا أن نأخذ كل ديننا عن النبي(ﷺ) قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٥)،

---

(١) سورة النجم: آية(٤,٣).
(٢) سورة يونس : آية (٦٤)٠
(٣) سورة البقرة : آية (٢٧٥)٠
(٤) سورة المائدة : آية (٣٨)٠
(٥) سورة الحشر: آية (٧)٠

٢-جانب اجتهادي أصله الكتاب والسنة إلا أن الله تعالى ترك للعلماء فيه الاجتهاد والرأي؛ لأنه يتعلق ببعض المستجدات، والأحوال التي قد تستجد على المجتمع المسلم بتغير الأزمان، فلهم أن يجتهدوا في استخلاص الأحكام الشرعية واستنباطها من نصوص القرآن، وسنة الرسول(ﷺ)، وهذا الجانب يقبل الأخذ منه والرد عليه بأدلة شرعية"(١)

وقد امتازت شريعة القرآن المعجز بأنها شريعة حاكمة بالشرائع الربانية الشاملة لأحوال البشر كلها، العادلة في تشريعها، وتطبيقها، فهي إلى جانب كونها رادعة عن المعصية ومعاقبة عليها، هي مربية ومهذبة للنفوس، حريصة على تنقيتها وتأديبها، فقد شرعت الأحكام التي من شأنها، منع الجريمة من أصلها، ومنه تشريع القصاص، الذي ورد في قول المولى -سبحانه- (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)(٢)، كما رسخت في نفوس المسلمين أخلاقًا وعادات من شأنها تنقية النفوس من الضغائن وسوء الأخلاق، والتي تؤدى إلى الوقوع في المعاصي، والآثام، وتربيتها على القناعة والتقوى، وتنقيتها بالشريعة السمحة المبنية على مراعاة الصالح العام، وتحقيق العدالة ومصلحة المجتمع، مع وضع الشرائع التي تضمن استقرار الأسرة المسلمة وصلاحها، والذي ينتج عنه حتمًا استقرار المجتمع كله؛ لكونها نواته، ولبنته الأولى، فإذا صلحت صلح، وإذا فسدت فسد، وهو ما سنتناوله بالدراسة في هذا الفصل، من خلال المبحث الأول: في كل من سورة (الأنفال) ، والتي شرع المولى -سبحانه وتعالى- فيها الغنائم، ولمن يكون أمرها، وما يترتب علي ذلك من استقرار الجماعة المسلمة وإرضائها؛ لقيامها على أساس من العدل الرباني، الذي لا يترك صغيرة، ولا كبيرة إلاَّ وضحها، وأرسى تشريع لها، مراعيا في كل ذلك دخائل النفوس، وما ينبغي أن تكون عليه.

ثم يأتي الحديث عن التشريع الخاص بالأسرة المسلمة، وعَلَامَ تقوم؟ لكي تستقر وتستمر، بإبطال ما اعتاده الناس من عادات فاسدة، وأباطيل،

---

(١) انظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد (دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، لمحمود محمد غريب، ص ١٨٥، الناشر: دار التراث العربي – القاهرة، الطبعة: الثالثة – ١٤١٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢) سورة البقرة: آية (١٧٩).

لا أصل لها في شريعة الإسلام، وهو ما صورته سورة المجادلة، والتي هي موضوع الدراسة في المبحث الثاني من هذا الفصل.

وذلك لأن أصل التشريعات التي قام عليها الدين، هي أخبار أعلم بها المولى –سبحانه وتعالى– نبيه، وأمره بتبليغها، وإخبار الناس بمضمونها، لِيَعْلَمُوها ويَعْمَلُوا بها.

المبحث الأول
بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر(ﷺ)
في فاتحة سورة (الأنفال)

بسم الله الرحمن الرحيم:

قال تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ذكر المولى –سبحانه وتعالى– في تلك الآيات ما يتعلق بالأنفال من أحكام، بسبب اختلاف الصحابة وسؤالهم عنها، إذ بين المولى –عز وجل– حكمها، وأقام تشريعها، مع الأمر بتقواه، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، إن كانوا مؤمنين حق الإيمان وأكمله.

أولاً: أغراض السورة:

جاء في سورة الأنفال ذكر لكثير من أحوال المسلمين خاصة ما يتعلق بغزوة بدر، من أحداث وأحوال، وتأييد المولى –سبحانه وتعالى– لهم بنعمة النصر على أعداء الدين، كما ضرب لهم الأمثال بالأمم السابقة، وذكر الأحكام المتعلقة بالعهد بين المسلمين والكافرين، وأحكام الأسرى، والإخبار عن حكم من تخلف من المسلمين عن الجهاد.

ثانياً: مناسبة السورة لما قبلها:

أما عن وجه المناسبة بينها، وبين السورة السابقة وهي سورة الأعراف، فقد ذكر الإمام الألوسي أن في سورة (الأعراف) "أمر بالعُرْف، وفي هذه كثير من أفراد المأمور به، وفي تلك ذكر قصص الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– مع أقوامهم وفي هذه ذكر النبي (ﷺ) وما جرى بينه وبين قومه، وقد فصل –سبحانه وتعالى– في تلك قصص آل فرعون، وأضرابهم، وما حل بهم، وأجمل في هذه"[1].

---

(١) روح المعاني: ج٥/١٤٧.

وذكر الإمام البقاعي "أنه لما ذكر تعالى قصص الأنبياء –عليهم السلام– مع أممهم في تلك، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم (ﷺ)،.... وأنه لما أطنب سبحانه في قصة موسى –عليه السلام– كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع، فأتى بقصة المخاطب بهذا القرين في سورتين كاملتين، الأنفال في أول أمره وأثنائه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين"(١).

وأما عن مناسبة أولها لآخر تلك فقد " تبين أن آخر الأعراف آخر قصة موسى عليه السلام المختتمة بقصة بلعام وأن ما بعد ذلك إنما هو تتمات لما تقدم لا بد منها وتتمات للتتمات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته –سبحانه– بالإذعان، وتمام الخضوع، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالية، اقتضى ذلك سؤالاً عن حال الذين عند المخاطب"(٢).

ثالثاً: الغرض البلاغي للخبر في فاتحة السورة:

قال تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر: ج ٨/٢١٦ .

(٢) السابق: ج ٨/٢١٧ .

(٣) (النَّفَلُ)" قيل: هو الغَنِيمَةُ بعَيْنِهَا لكن اختلفتِ العبارةُ عنه لاختلافِ الاعْتِبَارِ، فإنه إذا اعتُبِر بكونه مظفوراً به يقال له: غَنِيمَةٌ، وإذا اعْتُبِرَ بكونه مِنْحَةً من الله ابتداءً من غير وجوبٍ يقال له: نَفَلٌ، ومنهم من فَرَقَ بينهما من حيثُ العمومُ والخصوصُ، فقال: الغَنِيمَةُ ما حَصَلَ مسْتَغْنَماً بِتَعَبٍ كان أو غَيْرِ تَعَبٍ، وباستحقاقٍ كان أو غيرِ استحقاقٍ، وقبل الظَّفَرِ كان أو بَعْدَهُ. والنَّفَلُ: ما يَحْصُلُ للإنسانِ قبْلَ القِسْمَةِ من جُمْلَةِ الغَنِيمَةِ، وقيل: هو ما يَحْصُلُ للمسلمين بغير قتالٍ، وهو الفَيْءُ، وقيل: هو ما يُفْصَلُ من المَتَاعِ ونحوه بَعْدَ ما تُقْسَمُ الغنائمُ، وعلى ذلك حُمِلَ قولُه تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ)"، (المفردات للأصفهاني:ج ١/٨٢٠).

واختلف المفسرون في بيان المراد بالأنفال في الآية فمنهم من ذكر أنه يقصد بها " الْغَنَائِمَ مُجْمَلَةً قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: كَانَ هَذَا الْحُكْمُ مِنَ اللَّهِ لِدَفْعِ الشَّغَبِ ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ: وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ «٢» الْآيَةَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: الْأَنْفالِ فِي الْآيَةِ مَا يُعْطِيهِ الْإِمَامُ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ سَيْفٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَحْوِهِ " (البحر المحيط: ج٥/٢٦٨). =

استفتح المولى –عز وجل– السورة الكريمة والتي سميت بسورة الأنفال أو سورة بدر بتلك الجملة الخبرية، والتي أخبر بها المولى –سبحانه– نبيه محمد (ﷺ) عن تشريع ينظم قسمة الأنفال، بعد أن اختلف الصحابة رضوان الله عليهم فيها، فسئلوا عنها، خاصة وأنها أول غنيمة لهم في الإسلام، ولم يكن لديهم تشريع واضح ينظمها، أو يبين قسمتها، وكان لهم عادات في الجاهلية أرادوا العمل بها، فسألوا النبي(ﷺ) عنها بعد أن وقع جدال فيما بينهم[1].

ولهذا افتتحت السورة بسؤالهم عنها، قال تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وسؤالهم هذا معلوم للنبي (ﷺ)، فليس المقصود من الخبر هنا فائدته، ولازمه، ولكن الغرض هو تقرير حكمها، وبيان تشريعها، ولمن الحكم فيها، وقد أخبروا أنها لله ورسوله، يحكم فيها بما شاء، قطعا للجدل، ومنعا للمخاصمة أو للمنازعة.

وذكر العلماء أنه "من البين أن قَوْله تعالى ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ مؤذنا بتنازع بَين الْجَيْش فِي اسْتِحْقَاقِ الْأَنْفَالِ وقسمتها، فسَأَلُوا عَنْهَا بعد أن وَقَعَ بَيْنَهُمُ التَّنَازُعُ والتنافس فيها"[2]؛ ولهذا كان الغرض من الخبر في فاتحة السورة هو:

= وذكر الجمهور أن المقصود بـ "الْأَنْفَال" فِي هَذِهِ الْآيَةِ " مَا كَانَ زَائِدًا عَلَى الْمَغْنَمِ، قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: "الأنفال"، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سَهْمه على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه، ترغيبًا له، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم (جامع البيان في تأويل القرآن ج١٣/٣٦٥,٣٦٦).

(١) قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قوم سألوا رَسول الله (?) الأنفال أن يُعطيهموها، فأخبرهم الله أنها لله، وأنه جعلها لرسوله. وإن كان ذلك معناه، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله (انظر: جامع البيان: الطبري، ج١٣/٣٧٩).

(٢) استدل الرازي على تلك المنازعة بقوله:" وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وجوه:

الأول: أن قوله(قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) يدل على أن المقصود من ذكر مَنْعُ الْقَوْمِ عَنِ الْمُخَاصَمَةِ وَالْمُنَازَعَةِ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُه(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ) يدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَهُمْ. =

تقرير تشريع لها، برد قسمتها إلى لله ورسوله؛ مَنْعاً للمنازعة، وزجرًا لمن يخالف أمر الله ورسوله، والحث على التخلق بخلق الطاعة، والاستسلام لأمره تعالى، جمعًا للكلمة، وإرساءً لآداب الإسلام، ترسيخًا لمبدأ التسامح والأخوة بين المسلمين.

وقد يكون الغرض من إخباره (ﷺ) بقوله﴿يسألونك عن الأنفال﴾ توبيخ لمن جادل وخاصم من الصحابة في شأنها، فما كان ينبغي لهم أن يختصموا أو ينازعوا فيها، وقد ذكر الإمام البقاعي ما يشير إلى ذلك التوبيخ بقوله "الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة.....،فهم المستحقون للأنفال، وليس لهم إليها التفات وإنما همهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون ﴿عن الأنفال﴾التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها ..... ؛لأن ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداء"[1] وربما كان ذلك خافياً عليهم فكان جدالهم و سؤالهم ، فجاءت الآية نهيًا و زجرًا عنه.

ومن المعلوم أن هؤلاء الصحابة الذين شهدوا بدرًا هم أوائل الصحابة من الأنصار، والمهاجرين الذين زهدوا في الدنيا، وتركوا الأهل والأموال في سبيل دينهم، فما كان ليصدر عنهم مثل ذلك الخلاف، وقد رد بعض العلماء ذلك إلى أن تلك الأنفال كانت شهادة لهم على حسن البلاء في المعركة، وأنهم كانوا شديدي الحرص على تلك الشهادة من رسول الله (ﷺ)، وقد غلب هذا الحرص على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكّرهم الله –سبحانه– به، وردهم إليه.. و هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر، وبهذا يكون المولى –سبحانه– قد أخذهم بالتربية الربانية قولاً وعملاً... فنزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله(ﷺ) حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها[2].

= وَثَالِثُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) يدُلُّ عَلَى ذَلِكَ. (مفاتيح الغيب: ج١٥/٤٤٨)

(١) نظم الدرر : للبقاعي، ج ٢١٧/٨ .

(٢) انظر في ظلال القرآن: ج١٤٧٣/٣.

فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله، ويرضوا بقسم رسول الله(ﷺ)، طيبة قلوبهم، راضية نفوسهم.

وقد ذكر البقاعي "لما أخبر سبحانه أنه لا شيء لهم فيها إلا عن أمر الله ورسوله، وكان ذلك موجباً لتوقفهم إلى بروز أمره سبحانه على لسان رسوله (ﷺ)، وكانت التقوى موجبة للوقوف خوفاً حتى يأتي الدليل الذي يجسّر على المشي وراءه"(١) فلا قول لأحد بعد حكمه.

رابعاً: بلاغة التركيب في جملة الخبر:-

من المعلوم أن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي وأساليبه، بحيث يدل دلالة دقيقة على غرضه والمقصود منه، وهنا افتتحت السورة الكريمة بجملة:﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، وهي جملة فعلية اشتملت على ضمير لم يسبقه مرجع، وجاز ذلك اختصارًا للعلم بمرجعه،" لِأَنَّ حَالَةَ النُّزُولِ كَانَ السَّائِلُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ مَعْلُومًا مُعَيَّنًا فَانْصَرَفَ هَذَا اللَّفْظُ إِلَيْهِمْ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَامًا لَهُمْ تُعَلُّقٌ بِالْغَنَائِمِ وَالْأَنْفَالِ وَهُمْ أَقْوَامٌ مِنَ الصَّحَابَةِ"(٢)، فالضمير في﴿يسألونك﴾ لمن شهد بدرً منهم، ولم يذكر الاسم صريحا لتعينهم وقت نزول الآية، فلا داعي لذكره؛ لأنه إخبار عن معلوم.

وَمَجِيءُ الْفِعْلِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ ﴿يَسْأَلُونَك﴾ يدل عَلَى تكرار السُّؤَالِ وكثرته، لدلالة الفعل المضارع على التجدد والحدوث(٣)، وذلك "إِمَّا بِإِعَادَتِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْأُخْرَى مِنْ سَائِلَيْنِ مُتَعَدِّدَيْنِ، وَإِمَّا بِكَثْرَةِ السَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ حِينَ الْمُحَاوَرَةِ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ"(٤).

أما عن الغرض من سؤالهم فقد ورد أن السؤال قد يكون إما لاستدعاء معرفة، أو ما يؤدي إليها، وإمّا لاستدعاء جداء أو ما يؤدي إليه (٥).

---

(١) نظم الدرر:ج ٢١٨/٨.

(٢) مفاتيح الغيب:ج ٤٤٧/١٥

(٣) المقصود بالتجدد في الفعل المضارع : "أن الفعل من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى"، (عروس الأفراح للسبكي:٢٨/٢،(ضمن الشروح).

(٤) بحر العلوم: للسمرقندي:ج٣/٢.

(٥) حاشِيةُ الشِّهَاب : ج٢٤٩/٤.

وورد أن " السُّؤَالُ حَقِيقَتُهُ الطَّلَبُ، فَإِذا عدّي ب (عَن) فَهُوَ طَلَبُ معرفَة الْمَجْرُور بـ (عَن) وَإِذَا عُدِّيَ بِنَفْسِهِ فَهُوَ طَلَبُ إِعْطَاءِ الشَّيْءِ، فَالْمَعْنَى، هُنَا: يَسْأَلُونَكَ مَعْرِفَةَ الْأَنْفَالِ، أَيْ مَعْرِفَةَ حَقِّهَا فَهُوَ مِنْ تَعْلِيقِ الْفِعْلِ بِاسْمِ ذَاتٍ، وَالْمُرَادُ حَالُهَا بِحَسَبِ الْقَرِينَةِ ،وَإِنَّمَا سَأَلُوا عَنْ حُكْمِهَا صَرَاحَةً وَضِمْنًا فِي ضِمْنِ سُؤَالِهِمُ الْأَثَرَةَ بِبَعْضِهَا."[1].

والسؤال ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ هنا سؤال عن شيء غير معلوم، وهو "مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْلَمُوا مَاذَا يَكُونُ فِي شَأْنِ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْأَنْفالِ، وَأَنَّهُمْ حَاوَرُوا رَسُولَ اللَّهِ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِصَرِيحِ السُّؤَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَاصِمُ أَوْ يُجَادِلُ غَيْرَهُ بِمَا يُؤْذِنُ حَالُهُ بِأَنَّهُ يَتَطَلَّبُ فَهْمًا فِي هَذَا الشَّأْن"[2].

وذكر العلماء أن المقصود بالسؤال في الآية وجهان:

الأول : أن السؤال هنا استفتائي، وأن المقصود هو معرفة حكم الأنفال، وأن لفظ السؤال وإن كان مبهما إلا أن تعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعا على ذلك المعين، فقوله تعالى في الجواب ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ دل على أن مقصدهم من السؤال عن الأنفال هو: كيف مصرفها ومن المستحق لها؟ [3].

ومما يدل كذلك على أن السؤال استفتائي تعديه (بعن) "لأن السؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسئول فيتعدى إذ ذاك بعن، وقد يكون لاقتضاء مال ونحوه فيتعدى إذ ذاك الى المفعولين"[4].

والآخر: أن السؤال استعطائي وأن قوله ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ أي: مِن الأنفال ، على ما روي في الخبر أنهم كانوا يقولون (يا رسول الله اعطني كذا)، وقد قُرأ ما يوافق هذا قوله ﴿يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ﴾[5]، وعلى هذا الرأي يكون المراد بالنفل ما شرط للغازي زائدا على سهمه.

(١) بحر العلوم: للسمرقندي:ج ٣/٢.
(٢) التحرير والتنوير: ج٢٤٨/٩.
(٣) انظر مفاتيح الغيب : ج٤٤٧/١٥.
(٤) روح البيان: ج٣١١/٣ .
(٥) انظر مفاتيح الغيب : ج٤٤٨,٤٤٧/١٥.

كما ورد أن السؤال لم يكن استعطاء؛ لأنه " لو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه قاله شيخ الإسلام –عليه الرحمة–، وحاصله إنكار وقوع التنفيل حينئذ، وعدم صحة حمل السؤال على الاستعطاء والأنفال على المعنى الثاني من معنييها"(١)، وهو طلب معرفة الحكم.

وورد أنه " لا مانع من أن يحمل السؤال على الاستعلام، والاختصاص على اختصاص الحكم، مع كون المراد بالأنفال المعنى الثاني، والمعنى: يسألونك عن حال ما وعدتهم إياه(٢)، هل يستحقونه وإن حرم غيرهم" (٣)، وبمعرفة حكم الله فيه يرتفع النزاع وينتهى الجدال ويتحقق التسامح والمصالحة.

ثم تَبِعَ الأسلوب الخبري الأسلوب الإنشائي إذ جاءت عدة أوامر ترتبت على سؤالهم هذا، وهي الأمر بـ (قل – اتقوا – أصلحوا – أطيعوا)) في قوله عز من قائل﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ والمخاطب بـ(قُلْ) هو النبي(ﷺ) والفعل علي حقيقته، وفيه إلزام الصحابة بالتسليم والطاعة لأمر الله وحكمه، وزجر لهم عما لا يليق من اختلاف، ولا يتوافق مع المسلم الحق، خاصة أهل بدر.

وقد فصل كل من تلك الجمل الإنشائية عن جملة الخبر (يسئلونك) وهو رأى جمهور علماء البلاغة أما النحاة فكثير منهم يجوز عطف الجملة الإنشائية على الخبرية والعكس.

يقول بهاء الدين السبكي: "واعلم أن الخبر والإنشاء المتمحضين لا يعطف أحدهما على الآخر، فيجب الفصل بلاغة، وأما لغة فاختلفوا فيه ،

---

(١) روح المعاني:ج ١٥٢/٥.

٢) وقوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ (١) نَزلت فِي أنفال أهل بدر. وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى قِلَّةَ الناس وكراهيتهم للقتال قَالَ: من قتل قتيلا فله كذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا، فلمّا فرغ من أهل بدر قام سعد بن مُعَاذ فقال: يا رسول الله إن نفَّلت هَؤُلاءِ ما سمّيت لَهم بقي كَثِير من المسلمين بغير شيء، فأنزلَ الله تبارك وتعالى: قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ: يصنع فيها ما يشاء، فسكتوا وَفِي أنفسهم من ذَلِكَ كراهية. (معاني القرآن:ج٤٠٣/١،للفراء ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ،نشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط: الأولى).

(٣) روح المعاني: ج١٥٢/٥.

فالجمهور على أنه لا يجوز، واختاره ابن عصفور في شرح الإيضاح ، وابن مالك في باب المفعول معه في شرح التسهيل، وجوزه الصفار وطائفة .

ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه جواز عطف المختلفين بالاستفهام والخبر مثل : هذا زيداً ومن عمرو؟ وقد تكلموا على ذلك في قوله تعالى﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(١) .

وحاصله : أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ولا خلاف بين الفريقين، لأنه عند مَنْ جوزه يجوز لغة ، ولا يجوز بلاغة"(٢)، وما يجوز لغة يجوز بلاغة، ما لم يكن نادرا، ولهذا فكلام النحويين أدق وأوثق لورده كثيراً في القرآن الكريم، وما جاء به القرآن فهو أعلى مراتب البلاغة وأكملها.

كما عطف جمل الأمر التالية لاتفاقها جميعا في الإنشائية، حيث عطف عدة جمل على بعضها، وكل جملة منها فعل أمر، والمناسبة بينهم واضحة، فهذه الجمل إنشائية لفظًا ومعنى، والجامع فيهما ما بين المسند إليه من الاتحاد ، وما بين المسند من التناسب، وهي التقوى، والاصلاح، والطاعة.

يقول صاحب الطراز :"من حق المحدث عنه في الجملة الثانية : أن يكون له تعلق بالمحدث عنه في الجملة الأولى ، حتى يكونا كالنظيرين والشريكين ، ولا يجوز أن يكون أجنبياً عنه بحيث لا علاقة بينهما ولا مشابهة بحال"(٣).

وَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ ﴿لِلَّهِ﴾ على وجهين: الأَول: وهي لام الملك(٤) وذلك على قول من لم يجعل الأنفال من الغنام " فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَالٍ لَا يُعْرَفُ مُسْتَحِقُّهُ، فَيُقَالُ: هُوَ مِلْكٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَيُعْطِيهِ الرَّسُولُ لِمَنْ شَاءَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ بِاجْتِهَادِهِ.
وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي، الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَغَانِمِ، فَاللَّامُ لِلِاخْتِصَاصِ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢١.
(٢) عروس الأفراح: ج ٣ / ٢٦ ضمن شروح التلخيص .
(١) الطراز للعلوي: ج ٢ /٢٨.
(٤)" لام الملك موصلة لمعنى الملك إلى المالك، وهي متصلة بالمالك لا المملوك كقولك: هذه الدار لزيد.... وقد تدخل لآم الملك في الاستفهام إذا كان المملوك غير معروف مالكه كقولك: لمن هذا" اللامات: لأبي القاسم الزجاجي، (المتوفى: ٣٣٧هـ) ص ٦٢، المحقق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر – دمشق ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

أَيِ: الْأَنْفَالُ تَخْتَصُّ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، أَيْ حُكْمُهَا وَصَرْفُهَا، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ (إِلَى)، تَقُولُ: هَذَا لَكَ أَيْ: إِلَى حُكْمِكَ مَرْدُودٌ"[1] والفرق بينهما أن "(لام الملك) هي الداخلة بين ذاتين، ومصحوبُها يَملِكُ كقوله تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]، ونحو "الدارُ لسعيدٍ".

أما (لام الاختصاص) وتسمى ولامَ الاستحقاقِ – فهي الداخلة بين معنًى وذات – نحو "الحمدُ للهِ"، و"النجاحُ للعاملين"، ومنه قولهم "الفصاحةُ لِقُرَيشٍ، والصبّاحةُ لِبَني هاشمٍ"[3].

وعلة إضافتها إلى الله ورسوله أن "إضافة الغنائم الى الله على جهة التشريف لها وإضافتها الى الرسول؛ لأنه كان بيان حكمها وتدبيرها" [4].

كما أن العلة في عطف الرسول (ﷺ) على لفظ الجلالة هي "اختصاص الله بالأمر والرسول بالامتثال، وقد أشار في الكشاف إلى أنه لتعظيم شأن الرسول، وايذان بأنّ طاعته طاعته"[5]، و لما فيه من تشريف وتكريم يحمل على الإتباع والطاعة، ويحرك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول والتسليم.

كما يشير العطف على لفظ الجلالة أيضًا أن المقصود هو أن أمر قسمة الأنفال لمن يخصه الله بقسمتها بوحيه، وهو الرسول (ﷺ) فهومن يتصرف في الأنفال بإذن الله، كما تشمل تصرف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته(ﷺ)[6].

والأمر في قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ للنصح والتوجيه إلى طاعة الله، والزجر بالتخلي عما يشغلهم من الأمور الدنيوية، وكل ما يدعوهم إلى التنازع والفرقة.

---

(١) التحرير والتنوير:ج٩/٢٥١

(٢) سورة لقمان: ٢٦.

(٣) جامع الدروس العربية: لمصطفى بن محمد سليم الغلاييني (المتوفى: ١٣٦٤هـ)،ج٣/١٨٣، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة: الثامنة والعشرون، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

(٤) روح البيان : ج٣/٣١١،

(٥) حَاشِيةُ الشِّهَاب:ج ٤/٢٥٠

(٦) انظر التحرير والتنوير:ج٩/٢٥١

وهو تفريع[١] على جملة (الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)، وإشارة إلى رفع النزاع في استحقاق الأنفال؛ لأن أمر قسمتها موكول إلى الله ورسوله، لا ما اعتادوا عليه في الجاهلية، فيجب الرضا بحكم الله فيها طاعة و تقوى لله ورسوله،

وعطف عليه الأمر بإصلاح ذات البين بقوله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فهو أيضًا نصح وتوجيه بإصلاح ذات البين لأنهم اختلفوا واختصموا " قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: «اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا»[٢] فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالتَّصَافُحِ.....

وَالْإِصْلَاحُ: جَعْلُ الشَّيْءِ صَالِحًا، وَهُوَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، فَالْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ دَلَّ عَلَى فَسَادِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وَهُوَ فَسَادُ التَّنَازُعِ ...

أَيِ: اجْعَلُوا الْأَمْرَ الَّذِي يَجْمَعُكُمْ صَالِحًا غَيْرَ فَاسِدٍ، وَيَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يُنَزَّلَ فِعْلُ أَصْلِحُوا مَنْزِلَةَ الْفِعْلِ اللَّازِمِ، فَلَا يُقَدَّرُ لَهُ مَفْعُولٌ قَصْدًا لِلْأَمْرِ بِإِيجَادِ الصَّلَاحِ لَا بِإِصْلَاحِ شَيْءٍ فَاسِدٍ، وَأَوْجِدُوا الصَّلَاحَ بَيْنَكُمْ"[٣].

"ومعنى ذات بينكم: ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبّة واتّفاق. فالبين هنا بمعنى الاتّصال، ويطلق أيضا على الفراق، فهو من الأضداد"[٤].

وذكر أبو حيان أن البين بمعنى الفراق قال " الْبَيْنَ يُطْلَقُ عَلَى الْفِرَاقِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَصْلِ وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ هُنَا قَالَ، وَمِثْلُهُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَيَكُونُ ظَرْفًا بِمَعْنَى وَسَطَ، وَيُحْتَمَلُ ذاتَ أَنْ تُضَافَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَإِنَّمَا اخْتَرْنَا فِي أَنَّهُ بِمَعْنَى الْفِرَاقِ؛ لِأَنَّ اسْتِعْمَالَهُ فِيهِ أَشْهَرُ مِن اسْتِعْمَالِهِ فِي الْوَصْلِ، وَلِأَنَّ إِضَافَةَ ذَاتٍ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ إِضَافَةِ ذَاتٍ إِلَى بَيْنٍ الظَّرْفِيَّةِ"[٥]، وقيل: إنّ (ذات) بمعنى صاحبة، صفة لمفعول محذوف، أي أحوالاً ذات بينكم[٦].

---

(١) انظر التحرير والتنوير:ج٩/٢٥٣

(٢) انظر احكام القرآن: لابن العربي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، ج٢/٣٧٩، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

(٣) التحرير والتنوير:ج٩/٢٥٣,٢٥٤.

(٤) إعراب القرآن وبيانه ج٣/٥٢٧

(٥) البحر المحيط: لأبي حيان:ج٥/٢٧٠.

(٦) تفسير آيات الأحكام: ص٤٣٠.

والمقصود بها "الْأَمْرُ الَّذِي فَرَّقَكُمْ."[١]، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفوق، وبالإيثار أيضا.

"فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك، والتفويض فيه لله ولرسوله، فإن ذلك أسلم لهم، وأوفى لدينهم، وأبقى في إصلاح ذات البين"[٢].

وقوله ﴿فاتقوا الله﴾ جملة مستأنفة، وكذلك قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾[٣].

"وهذه الآية محكمة بيّن فيها إجمالا أنّ الأمر مفوّض لرسول الله، وآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ﴾ إلخ فصّلت هذا الإجمال ببيان مصارف الغنيمة"[٤].

وقد قدم سبحانه الأمر بالتقوى؛ لأن التقوى أصل العبادة والطاعة، والتي إذا وجدت وجدت والعبادة الحقة وصلح سائر العمل، وإذا فُقِدَت فُقِدت، ثم جاء الأمر بإصلاح ذات البين؛ لأنه مترتب عليها، ثم جاء الأمر بطاعة الله ورسوله في كل ما أمر ونهى؛ لأن به صلاح شأن الأمة و قوتها.

كما جمُع بين طاعة الله وطاعة رسوله(ﷺ)؛ لأن طاعة الرسول طاعة للمولى عز وجل، فهو مبلغ عنه، قال تعالى ﴿ وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾[٥].

وفي العطف على هذا النحو يقول الامام العلوي " ولا بد من رعاية الملائمة والمناسبة في تقديم بعضها على بعض لئلا يخلو التنزيل عن أسرار معنوية، ودقائق خفية، يتفطّن لها أهل البراعة، ويقصر عن إدراكها من لا حظوة له في معرفة هذه الصناعة، فلابد من أن يكون لتقديم المعطوف عليه على المعطوف وجه يسوّغه، وإلا كان لغوا"[٦].

---

(١) وَرُوِيَ "أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ؛ فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ لَنَا، حَرَسْنَا رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ لَنَا، اتَّبَعْنَا أَعْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ. وَقَالَتْ أُخْرَى: نَحْنُ أَوْلَى بِهَا، أَخَذْنَاهَا، فَنَزَلَتْ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ}"،(أحكام القرآن: لابن العربي،ج٢/٢٣٨).

(٢) البرهان : للغرناطي، ص٢١٦

(٣)المجتبى من مشكل إعراب القرآن: ج١/٣٦١، لأحمد بن محمد الخراط، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، عام النشر: ١٤٢٦ هـ.

(٤) تفسير آيات الاحكام٤٣٠ص.

(٥) سورة : النجم (٤,٣).

(٦) الطراز :للعلوي ج٣/١٧٢.

ومن البين أنه بعد أن أمر سبحانه بالتقوى والطاعة ونهى عن التنازع والفرقة ، هيج وألهب و قال مبيناً كون الإيمان مستلزماً للطاعة عن طريق جملة الشرط(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، فإن شرطية، "وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه ما قبله، أي:(إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله"(١)، والذي دل عليه قوله سبحانه (فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ، و"لِأَنَّ الشَّرْطَ لَمَّا وَقَعَ عقب تِلْكَ الْجمل كَانَ رَاجِعًا إِلَى جَمِيعِهَا "(٢) فَمَعْنَى الشَّرْطِ بَعْدَ تِلْكَ الْجُمَلِ الْإِنْشَائِيَّةِ: إِنَّا أَمَرْنَاكُمْ بِمَا ذُكِرَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، أي صادقين في دعوى الإيمان، فليس كل من يدعي شيئاً يكون صادقاً في دعواه حتى يحصل البيان بالامتحان، ولذلك وصل به قوله مؤكداً غاية التأكيد؛ لأن التخلص من الأعراض الدنيوية عسر"(٣)، ولأن غير المؤمنين حقيقة غير مطالبين بتلك الأوامر، فليس المقصود بالشرط إن لم تكونوا مؤمنين فلا تفعلوا، وإنما هو حث، وترغيب، وإلهاب للنفوس على الامتثال، والطاعة لقسمة الله وحكمه.

وليس المقصود بالشرط في الآية التعريض بضعف إيمانهم، ولا الشك فيه، خاصة أنَّ (إنْ) تستخدم في مقام عدم الجزم بوقوع الشرط، بخلاف (إذا) الدالة على التحقق واليقين (٤)، وإنما المقصود هو الحث والتحريض على أن يكون إيمانهم تامًا غير منقوص، وإظهار الصفات والخصال التي يطلبها الإيمان الكامل.

يقول الزمخشري: "وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم إنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ولا يخفى أن إصلاح ذات البين داخل في طاعة الأوامر، وما في الآية تعميم بعد

---

(١)المجتبى من مشكل إعراب القرآن: ج١/٣٦١.

(٢) جاء في البحر المحيط أن "جَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ الْمُتَقَدِّمِ (وَأَطِيعُوا) هَذَا مَذْهَبُ سِيبَوَيْهِ وَمَذْهَبُ أَبِي الْعَبَّاسِ أَنَّ الْجَوَابَ مَحْذُوفٌ مُتَأَخِّرٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمُتَقَدِّمُ تَقْدِيرُهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَطِيعُوا وَمَذْهَبُهُ فِي هَذَا أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ الْجَوَابُ عَلَى الشَّرْطِ .

وهذا مُخَالِفٌ لِكَلَامِ النُّحَاةِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّ مَذْهَبَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ الْجَوَابَ مَحْذُوفٌ وَأَنَّ مَذْهَبَ أَبِي الْعَبَّاسِ وَأَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَالْكُوفِيِّينَ جَوَازُ تَقْدِيمَ جَوَابِ الشَّرْطِ عَلَيْهِ، وَهَذَا النَّقْلُ هُوَ الصَّحِيحُ.(البحر المحيط: لأبي حيان:٥/٢٧٠) .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج٨/ ٢١٩

(٤) ذكر البلاغيون أن (إنْ) للشك وعدم اليقين ،بخلاف (إذا) ، وهذا لا يلائم المقام في هذه الآية .

تخصيص، وإنما قدم ما يدلّ على الاحتراز لذكر الأنفال التي هي مظنة الغلول، ثم الإصلاح لمناسبته للقصة"[1].

وبذلك يتبين أنه " لا بد للإيمان من صورة عملية واقعية، يتجلى فيها، ليثبت وجوده، ويترجم عن حقيقته، وكما قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل»[2].

ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيراً في القرآن لتقرير هذا المعنى الذي يقرره قول رسول الله (ﷺ) ولتعريف الإيمان وتحديده وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان، أو تمنياً لا واقعية له في عالم العمل والواقع "[3] وليتحقق الإيمان الحق الذي ارتضاه المولى –عز وجل– للمؤمنين، ويأخذهم بالأدب الرباني والهداية إلى طريق الرضا والرشاد في الدنيا والآخرة.

تعقيب:

من خلال ما سبق نستخلص أن:–

أولًا: جاء الأسلوب الخبري في فاتحة السورة لتقرير تشريع للأنفال، يثبت أن أمر قسمتها مردود إلى الله ورسوله، منعًا للمنازعة، وتفرق الكلمة، بسبب ما جبلت عليه النفوس من حب المال، وغلبة الرأي، وترسيخًا لمبدأ الطاعة، والتسامح بين المسلمين.

ثانيًا: تآزر مع الأسلوب الخبري الأسلوب الإنشائي في تقرير وتوضيح المقصود من الخبر، حيث جاء أسلوب الأمر مرادًا به حقيقته بلفظ (قل)، والنصح والتوجيه بكل من (فاتقوا –وأصلحوا–وأطيعوا).

ثالثًا: عطف أفعال الأمر من التقوى والإصلاح والطاعة، لاتحاد الحكم، ووجوب العمل بها جميعا، كما يبدوا جليا حسن التنسيق بين الجمل، من حيث ترتيبها، وعطف بعضها على بعض، حيثما يقتضيه المعنى ويتطلبه السياق.

رابعا: ختم الآية بأسلوب الشرط حثًا للنفوس على وجوب الامتثال لأمر الله ورسوله، والتمسك بجميل الخصال، وكريم الفعال، التي ينبغى أن يتحلى بها المؤمن الحق، وتستلزم كمال الإيمان وتمامه، ومن ثمَّ رضا المولى –سبحانه– وإنعامه.

---

(١) الكتاب: حَاشِيةُ الشِّهَاب: ج٤/٢٥٠,٢٥١ .

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر بن أبي شيبة، (المتوفى: ٢٣٥هـ)،ج٦/١٦٣. المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

(٣) صفوة التفاسير:ج١/٤٥٨.

المبحث الثاني
بلاغة الخبر في خطاب سيد البشر(ﷺ)
في فاتحة سورة (المجادلة)

بسم الله الرحمن الرحيم:

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)﴾ (١) .

يخبر المولى –سبحانه وتعالى– نبيه الكريم في تلك الآيات علمه بشكاية المرأة التي أتته مجادلة ومحاورة في شأن ظهار زوجها منها، فيأتي الخبر من المولى –سبحانه وتعالى– يفرج همَّها ويزيل حزنها، وفيه البشارة لها وأمثالها .

أولا: أغراض السورة:

افتتحت السورة الكريمة بذكر سبب نزولها، فهي تشير من أول كلمة إلى قصة المرأة(٢) التي أتت النبي (ﷺ) تجادله وتشكوه ظهار زوجها(٣)، وما حكم به المولى

---

(١) نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم، وذكر أنها نزلت قبل سورة الحجرات، (التحرير والتنوير:ج٢٨/٦)، ذكر الإمام القرطبي أن عدد آياتها اثنتان وعشرون آية ، وهي سورة مدنية إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكي، وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ) نزلت بمكة"(تفسير القرطبي:ج١٧/٢٦٩) .

(٢) "هِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ. وَقِيلَ بِنْتُ حَكِيمٍ. وَقِيلَ: اسْمُهَا جَمِيلَةُ. وَخَوْلَةُ أَصَحُّ، وَزَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ أَخُو عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ""(تفسير القرطبي:ج١٧/٢٦٩) .

(٣) "الظهار لغة مصدر ظاهر، وهو مفاعلة من الظهر، ويراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر، معنى ولفظا باختلاف الأغراض... وظاهر من امرأته إذا قال لها: أنت عليَّ =

-عز وجل- في قضيتها، وإبطال ما اعتاد عليه العرب من الظهار، وأن ذلك مخالف لما شرعه الله، فهو من ادعاءاتهم و أباطيلهم المزعومة التي لا سند لها٠

ثم تحدثت السورة عن المنافقين، وموالاتهم لليهود، وحلفهم على الله الكذب٠

ثم التعرُّض لآداب مجلس الرسول (ﷺ)، والثناء على الْمؤمنين، وأن اللَّهَ تعالى ورسوله هم الغالبون([1]) ٠

ثانيًا: مناسبة السورة لما قبلها:

أما عن وجه المناسبة بين فاتحة هذه السورة وسابقتها في ترتيب المصحف، وهي سورة (الحديد)، فقد جاء في ختام سورة الحديد الحديث عن عظيم فضل الله -سبحانه وتعالى- على عباده بقوله عز وجل ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2]، وافتتحت سورة المجادلة بما يشتمل على ذلك الفضل من كشف الكروب وإزالة الهموم٠

ومن المناسبة أيضًا ما جاء في مطلع سورة الحديد من ذكر صفاته سبحانه وتعالى، الدالة على علمه بكل ما ظهر، وخفي في السموات والأرض، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[3] ثم افتتح -سبحانه- هذه السورة بقوله﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ شاكية حالها، مناجية ربها بأن يكشف ما أهمها وأحزنها، وقد قالت

=كظهر أميٍّ، وغاية ما يلزم كون لفظ الظهر في بعض هذه التراكيب مجازا، وهو لا يمنع الاشتقاق منه، ويكون المشتق مجازا أيضا، وهذا الأخير هو المعنى الذي نزلت فيه الآيات".(روح المعاني:ج١٤/١٩٩)٠

والظهار في اصطلاح الفقهاء: هو أن يقول الرجل لامرأته عند الخصومة أنت عليَّ كظهر أمي يعنى يشبهها بامه المحرمة عليه، فكانت حينئذ محرمة عليه، الحكم هكذا في عادة الجاهلية، إذ الحرمة قد سرت إليها بمجرد التشبيه فصارت هي بمنزلة الأم (الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: ج٢/٣٩٣. للشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ) الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر،الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م٠

(١) انظر: التحرير والتنوير:ج٢٨/٦.

(٢) سورة الحديد آية (٢٩)٠

(٣) سورة الحديد: آية "٤"٠

السيدة عائشة –رضي الله عنها– حين نزلت: "سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي ناحية البيت لا أعرف ما تقول"[(١)]، فهو اللطيف بعباده، الخبير بأحوالهم، العليم بجميع أمورهم.

كما أن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [(٢)]، تفصيل لإجمال جاء في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [(٣)] فمن كان عالمًا بما خلق، سميعًا لمن خلق، و هو معهم في سرهم وجهرهم، كان بهم رحيم، ولهم مجيب.

وبذلك فسر البقاعي الحكمة في الفصل بها بين سورتي الحديد والحشر، مع اتفاقهما في الافتتاح بالتسبيح[(٤)].

ثالثًا: الغرض البلاغي للخبر في فاتحة السورة:

افتتحت السورة الكريمة بالإخبار عن سماع المولى –عز وجل– حديث المجادلة مع رسوله محمد(ﷺ)، وشكايتها حالها، وتضرعها إلى الله بالدعاء، عساه يكشف ضرها، ويزيل ما أهمها.

وليس المقصود من الإخبار بالسماع هنا فائدة الخبر، ولا لازمها، لأن ذلك معلوم لاشك فيه، وإنما الغرض هو تقرير تشريع للظهار، يبطل ما عرفه العرب واعتادوا عليه من تحريم الزوجات به تحريما أبديا، ويقرر أن الزوجة ليست أُمًا، وأن ذلك القول منكرٌ وباطلٌ ما أنزله الله به من شيء، وفي ذلك التشريع، وهذا الخبر، تبشير للمجادلة، ومن في مثل حالها، بما يكشف ضرهُن، ويزيل ما أهمهن، وفيه تنويه بقضية هذه المرأة، والعناية بشأنها، والاهتمام بجدالها، لا لشخصها، ولكن لكونها ممثلة لحادثة اعتاد أهل الجاهلية عليها، وهي حادثة مخالفة للشرع، منافية للحقيقة والعقل، إذ يشبهون حلائلهم من النساء بأمهاتهم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة "١/ ٦٧"، والإمام أحمد في المسند "٦/ ٤٦"، وأخرجه البخاري بنحوه معلقًا "٩/ ١٤٤ ، والنسائي في الطلاق باب ٣٣.

(٢)المجادلة آية (٧).

(٣) "الحديد: ٤".

(٤) انظر نظم الدرر:ج١٩/٣٣٣.، وأسرار ترتيب القرآن: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ص١٣٨، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

في حرمتهن، وذلك زور وبهتان عظيم، فلكل شخص منزلته وصفته التي لا يزاحمه أو يشبهه فيها غيره، ولهذا فقد كان الإخبار بالسماع هنا يحمل معنى الإجابة وقبول الدعاء، مع التنبيه على أهميه تلك القضية، والتنويه بخطرها على الأسرة والمجتمع.

وعليه فقد "كان علمه سبحانه بخصوص شكاية هذه المرأة المسكينة وإزالة ضررها بحكم عام لها ولغيرها من عباده حتى صارت واقعتها رخصة عامة للمسلمين إلى يوم القيامة "[(١)].

وفي ذلك المطلع دلالة واضحة علي عناية المولى –عز وجل– بجميع أحوال عباده صغيرها وكبيرها، إذ نلاحظ تلك الفاتحة التي تؤكد علمه تعالى بأخص شؤونهم، والاطلاع عليها، والعناية بها، ببيان حكمها، وإقامة تشريعها؛ لتستقيم به أحوال الأسرة، وصلاح الجماعة.

وقد افتتح المولى سبحانه السورة بقوله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها﴾ من البين في ذلك الخبر ما يؤكد مكانة الأمة الإسلامية ومنزلتها عند ربها، وعنايته بها و"ليعلم أهل الكتاب ما لهذه الأمة من الكرامة على ربها وأنه يختص برحمته من يشاء"[(٢)]، ولتشعر الأسرة والجماعة المسلمة أن الله معها في كل أحوالها، صغيرها وكبيرها، معني بها، مستجيب لها، لا يشغله عظيم الأمور وكبيرها عن صغيرها وقليلها، فالمولى –سبحانه وتعالى– أقرب إلى عباده من حبل الوريد، يسمع شكواهم ونجواهم، ويكشف ما أصابهم وأضناهم.

كما يلاحظ في الآية تلك الصورة الرائعة من صور رحمته الله–تعالى– ورعايته لعبادة، وذلك باستجابة دعائهم، وتحقيق مطلبهم، وتقرير تشريع فيه صالحهم، وصالح أسرهم ف" قد سمع– سبحانه وتعالى– للمرأة وهي تحاور رسول الله فيها، ولم تكد تسمعها عائشة وهي قريبة منها! وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته"[(٣)]، وتوجيهه سبحانه إلى ما فيه صلاح أحوالهم، واستقامة أمورهم، واستقرار حياتهم، حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

(١) نظم الدرر: ج١٩/٣٣٣
(٢) نظم الدرر:ج١٩/٣٣٣.
(٣) في ظلال القرآن:ج٦/٣٥٠٤.

وبمعايشة ذلك الخبر" نجد عناصر التأثير، والإيحاء، والتربية، والتوجيه تسير جنبًا إلى جنب مع الحكم، وتتخلله، وتعقب عليه، كما هو أسلوب القرآن الفريد"[١]، في العناية بالتربية والتوجيه، مع الحكم والتشريع ، فقد امتازت شريعة القرآن أنها شريعة حاكمة بالشرائع الربانية، الشاملة لأحوال البشر كلها، العادلة في تشريعها وتطبيقها، فهي إلى جانب كونها رادعة عن المعصية، ومعاقبة عليها، هي مربية للنفوس ومهذبة لها.

ومما يشير إليه الخبر في الآية حالة التضرع والخضوع، التي كانت عليها تلك المرأة التي جادلت وحاورت الرسول(ﷺ)، راجية أن يفرج الله همها ويزيل كربها، حرصا منها على صالح أسرتها وأبنائها، فقد بثت شكايتها إليه تعالى إظهارًا لحزنها، وما انطوت عليه نفسها من هم بتضرع وخشوع بعدما أيست من إيجاد مخرج يكشف ما أصابها وأضر بها، وهنا جاء الفرج من الله بشرى لها ولغيرها ممن في مثل حالها؛ رحمة من الحق بعباده الطائعين المخلصين في الدعاء والرجاء.

و لا يخفى أن من توجه إلى الله وفوض الأمور إليه بتضرع وخشوع، فان الله يجيب مطلبه، ويحقق مقصده، إن كان خالص النية لله تعالى؛ ولذلك فقد كان "لصدقها في شكواها، وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله، كانت هي والنبيُّ(ﷺ)، متوقعين أن الله يكشف ضرها"[٢]، ويجيب دعاءها، ويحقق رجاءها.

وقد دلت تلك الحادثة على أن " مَنِ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِي مُهِمِّهِ أَحَدٌ سِوَى الْخَالِقِ كَفَاهُ اللَّه ذَلِكَ الْمُهِمَّ"[٣].

كما توحي بوجوب دفاع المرأة عن حقها، وحق أبنائها في أن يحيوا حياة مستقرة آمنة، حيث ضربت تلك المرأة المثل في الحرص عل صالحها، وصالح أبنائها، وأسرتها "تعْلِيمًا لِنِسَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَرِجَالِهَا وَاجِبَ الذَّوْدِ عَنْ

(١) السابق:ج٦/٣٥٠٦.
(٢) نظم الدرر: ج١٩/٣٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب :ج٢٩/٤٧٨.

مَصَالِحِهَا"[1] وحسن رعايتها لأبنائها، فتبنى أسرتها على أساس صحيح ترقى به الأمة المسلمة، وتستقر أحوالها.

ومن هنا جاءت فاتحة السورة للتنويه بأهمية تلك القضية، وتقرير حكم الله تعالى وتشريعه في تلك المسألة المسماة بالظهار، بتأكيد بطلانه، فما هو إلا منكرٌ من القول ما أنزل الله به من سلطان.

وقد جعل الإمام الزمخشري[2] أن ذلك البيان لتعليم الأحكام والتنبيه عليها في الظهار وغيره، للعمل بشرائعه تعالى التي شرعها لعباده لصلاح أحوالهم، ورفض ما اعتادوا عليه في الجاهلية من عادات سيئة تهدم ولا تبني، وفي ذلك صورة من صور التربية الربانية للأسرة المسلمة، وطريق من طرق القرآن الكريم في علاج العادات والنزوات الفاسدة .

كما يلاحظ تلك الصورة الموحية بوجود المولى –عز وجل– و رعايته للجماعة المسلمة في أخص خصائصها، وأدق شؤونها، فما أعظمها من تربية، وما أجلها من عناية تليق بخير أمة أخرجت للناس.

رابعًا: بلاغة التركيب في جملة الخبر:

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1]

ذكر الامام الزمخشري[3] وكثير من المفسرين أن (قَدْ) في قوله (قَدْ سَمِعَ) معناها التوقع؛ لأن رسول الله (ﷺ) والمجادلة كانا يتوقعان أن يستجيب الله لشكواها وينزل على رسوله ما يفرّج عنها.

والأصل أن (قَدْ) حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر[4]، والخطاب للنبي (ﷺ) وهو لا ينتابه تردد ولا شك في علم المولى –عز وجل–

(١) التحرير والتوير:ج٢٨/٧.
(٢) الكشاف :ج٤/٤٨٩.
(٣) انظر الكشاف:ج٤/٤٨٥.
(٤) انظر حاشية الايضاح:ج١/٧٠.

بشكوى المجادلة ولذلك فقد تعين استعمال قد في التوقع وهو "الْإِشْعَارِ بِحُصُولِ مَا يَتَوَقَّعُهُ السَّامِعُ"[١] لا تحقيق الخبر وتأكيده.

ومما يدل على إفادة (قد) لذلك المعنى ما ذكره الزجاجي بقوله "قَالَ الْخَلِيل هِيَ لقوم يتوقعون أمرا فَيَقُول لَهُم قد كَانَ ذَلِك"[٢].

والمراد بالتوقع المفهوم من (قد) هو تنزيل الأمر المتوقع الحصول منزلة الطالب له المتردد فيه لشدة استشرافه له وحرصه عليه، فهو "من تنزيل غير السائل منزلة السائل للاهتمام بشأن الخبر"[٣] وخروج الكلام علي خلاف مقتضى الظاهر لنكتة، كما هو في تأكيد الخبر بـ(إن) في قوله تعالى ﴿وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [٤] حيث "ينزل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب..... وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض"[٥].

والتعبير بـ(السماع) في الآية، مجاز مرسل علاقته السببية، فسماع الدعاء سبب في الإجابة و تفريج الكرب، أو هو كناية عن قبول دعائها وكشف ضرها فهو كناية عن صفة [٦].

وفي التعبير عن المجادلة بالاسم الموصول (التي) " زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، لما في صلة الموصول من دلالاتٍ توحي بوقوع الحدث "[٧] و تصوير الحالة التي هي عليها؛ لكونها تبالغ في دعائها وشكواها؛ تنويها بمجادلتها، وتقريرا لإجابة الله لها، و تقبل دعائها.

---

(١)انظر مفاتيح الغيب:ج٢٩/٤٧٨.

(٢) حروف المعاني والصفات، الزجاجي (المتوفى: ٣٣٧هـ)، ص ١٣، المحقق: علي توفيق الحمد، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م، و المفصل في صنعة الإعراب ، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ) ص٤٣٣، المحقق: د. علي بو ملحم ، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

(٣) بغية الإيضاح :ج١/٤٥.

(٤) سورة هود (٣٧).

(٥) الايضاح :ج١/٧٣.

(٦) نظر روح المعاني :ج١٤/١٩٨.

(٧) البلاغة العربية: للميداني الدمشقي، ج١/٤٣٢.

وخطاب النبي (ﷺ) بقوله (تجادلك) فيه من التكريم والتشريف للنبي والمجادلة ما فيه، فهو تعظيم للنبي (ﷺ) بخطاب المولى له، وتشريف للمجادِلة بمحاورتها للرسول(ﷺ)، وسماع المولى–عز وجل– دعائها وإجابته.

وفي قوله–سبحانه–﴿فِي زَوْجِهَا﴾ إيجاز بحذف المضاف أي" في شأن زوجها"[(١)]، وقد حذف للعلم به من الحال والقصة.

وقوله "﴿وتشتكي﴾ أي تتعمد بتلك المجادلة الشكوى"[(٢)]، مبالغة في الشكوى، وغرض المجادلة منها هو إزالة شكواها وما وقع عليها من ضُر، بحكم من الله تعالى يبلغه لرسوله.

ويقصد بالسماع في قوله:﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما﴾ حقيقة السماع المناسب لصفات المولى –سبحانه وتعالى–، من السمع والبصر وغيرها من الصفات المناسبة لذات المولى –سبحانه–، ولا يوجد في الآية ما يصرف الفعل عن حقيقته، والجملة حالية، والتعبير بالمضارع (يَسْمَعُ) لاستحضار تلك الحال، والتنويه بما كان بينها وبين الرسول(ﷺ) من حوار إلى جانب دلالة المضارع على استمرار السماع وتجدده تبعا لاستمرار التحاور، وما له من دلالة نفسية تؤكد حيرتها واضطرابها، و"كأنها لثقل ما قدح في أمرها ونزل من ضرها ناشئة عن حيرة"[(٣)] لما أصابها ووقع بها.

والجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها وذلك؛ لأن كثرة جدالها ومحاورتها الرسول(ﷺ)، وتضرعها إلى المولى –سبحانه–، والإخبار عن سماع قولها، وعلمه –سبحانه– بحالها، كل ذلك ينبئ عن إجابة دعائها، وتحقيق رجائها.

---

(١) مفاتيح الغيب : ج٢٩/٤٧٨

(٢)وَالْاشْتِكَاءُ: شكا الشَّكْوُ والشِّكَايَةُ والشَّكَاةُ والشَّكْوَى: إظهار البثّ، يقال: شَكَوْتُ واشْتَكَيْتُ ، قال تعالى:(إنما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) [يوسف/ ٨٦] ، وقال: وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ [المجادلة/ ١] ،. وأصل الشَّكْوِ فتح الشَّكْوَةِ وإظهار ما فيه، وهي: سقاء صغير يجعل فيه الماء، وكأنه في الأصل استعارة، كقولهم: بثثت له ما في وعائي، ونفضت ما في جرابي: إذا أظهرت ما في قلبك".(المفردات: ٤٦٣) "وَالْأَكْثَرُ أَنْ تَكُونَ الشِّكَايَةُ لِقَصْدِ طَلَبِ إِزَالَةِ الضُّرِّ الَّذِي يَشْتَكِي مِنْهُ بِحُكْمٍ أَوْ نَصْرٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِحِيلَةِ خَلَاصٍ"(التحرير والتنوير:ج٢٨/٩).

(٣) نظم الدرر:ج١٩/٣٣٤.

"وَالتَّحَاوُرُ[1] تَفَاعُلُ مِنْ حَارَ إِذَا أَجَابَ. فَالتَّحَاوُرُ حُصُولُ الْجَوَابِ مِنْ جَانِبَيْنِ، فَاقْتَضَتْ مُرَاجَعَةً بَيْنَ شَخْصَيْنِ"[2]، وهو يشير إلي شدة حرص المجادلة على الوصول إلى ما يفرج همها.

كما أن مجيء النظم الكريم بأسلوب الخطاب تغليب فيه من التشريف والتكريم للمجادلة ما فيه، إذا أن الحوار مع أشرف الخلق، والسامع هو الخالق القادر فما أعظمه وأجله من حوار.

وقد فصل قوله عز وجل ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ عما قبله لكونه تعليلا له، عن طريق الاستئناف البياني، ولذلك لم يعطف لشبه كمال الاتصال، وجاء مؤكدًا على خلاف مقتضى الظاهر، من تنزيل غير السائل منزلة السائل، للمبالغة في إثبات علمه تعالى بكل مسموع ومبصر، وهو يشير إلى أنه سبحانه مع سماعه لشكواها فهو بصير بحالة التضرع والرجاء التي هي عليها، "وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في الموقعين لتربيةِ المهابةِ، وتعليلِ الحُكم بوصفِ الألوهيةِ وتأكيد استقلالِ الجملتينِ"[3].

وفي تكرار لفظ الجلالة أيضًا ما يدل على وجوب التوجه إلى المولى –عز وجل–، فهو ملجأ كل مستجير و مقصد كل مهموم، وقد أشار البقاعي إلى أن " كثرة كل ذلك، للدلالة على أن الأكثر منها المراد فيها بالخطاب من يصح أن ينظر إليه تارة بالجلال، وتارة بالكمال، فيجمع له الوصفان"[4] وذلك لتأكيد غرابة الواقعة وأهميتها، قال "لما كان ذلك في غاية ما يكون من خرق العادة ...أكده تنبيهاً على شدة غرابته، ولأنه ربما استبعده من اشتد جهله لعراقته في التقيد بالعادات فقال: ﴿إن الله﴾ أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال فلا كفؤًا له﴿سميع بصير﴾ أي بالغ السمع لكل مسموع، والبصر لكل ما يبصر، والعلم لكل ما يصح أن يعلم أزلاً وأبداً"[5].

---

(١) "الحَوْرُ: التَّردّد إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر، ....والمُحاوَرَةُ والحِوَار: المرادّة في الكلام، ومنه التَّحَاوُر، قال الله تعالى: وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما [المجادلة/ ١] ، وكلّمته فما رجع إليّ حَوَار، أو حَوِير أو مَحُورَة «٣» ، أي: جوابا، "(المفردات: ٢٦٢)

(٢) التحرير والتنوير:ج٢٨/٩.

(٣) تفسير أبو السعود :ج٩/٢١٧،

(٤) نظم الدرر:ج ١٩/٣٣١.

(٥) نظم الدرر:ج١٩/٣٣٤.

كما جاء ختام الآية ملائما لأولها، إذ كان ابتدائها بالإخبار بسماعه تعالى بشكواها، وهنا الإخبار بكونه سبحانه سميعًا بصيرًا على طريق المبالغة في الصفة، وهو ما يسمى بالتسهيم [(١)] إذ أن صدر الآية جاء دالا على فاصلتها، كما يدل صدر البيت المسهم على عجزه.

وفي قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢)﴾

بيان لما جاء في الآية الأولى، ولذلك فصلت عنها للاستئناف البياني، حيث وقعت موقع الجواب عن سؤال أثارته الآية السابقة، مفاده بعدما سمع سبحانه شكوى المجادلة بماذا أجاب دعائها؟ وكيف كشف ضرها؟، فجاءت الآية الكريمة فيها المخرج لها، وكشف ما أصابها، وذلك بتقرير تشريع يبطل تحريمها، ويبين حكم الله في شأنها.

كما أن الخطاب في قوله ﴿منكم﴾ هو لعموم المسلمين، وليس للمجادلة وزوجها فقط، بما يدل على أن الآية تشريع عام لكل من وقع منه ذلك، ولهذا كانت (مِنْ) المضافة إلى كاف الخطاب بيانية إذ قصد بها بيان المقصود بالخطاب.

وأما (من) في قوله ﴿مِنْ نِسائِهِمْ﴾ فهي ابتدائية متعلقة بـ ﴿يُظاهِرُونَ﴾ لتضمنها معنى البعد، إذ أن الظهار كان عندهم طلاقا، والطلاق يبعد أحد الزوجين عن الآخر فناسبه حرف الابتداء ،كما يقال (خَرَجَ مِنَ الْبَلَدِ)"[(٢)].

وفي قوله ﴿إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أسلوب قصر استخدمت فيه إن الشرطية بدلا من أداة النفي، وهو من قصر الموصوف على الصفة، إذ قصر

---

(١)التسهيم مأخوذ من " الثوب المسهم، وهو الذي يدل أحد سهامه على الذي يليه، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص له، بمجاورة اللون الذي قبله أو بعده.
هو أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما تأخر منه، أو يتأخر منه ما يدل على ما تقدم"، (تحرير التحبير: ص٢٦٣).
وعرفه الخطيب بقوله "وهو أن يجعل قبل العَجُز من الفقرة أو البيت ما يدل على العَجُز إذا عُرف الرَّوِيّ". (بغية الإيضاح: ج٤/٥٨٧).
(٢) انظر التحرير والتنوير: ج٢٨/١١.

أمهاتهم على من ولدنهم، وهو قصر حقيقي تحقيقي؛ لأن الأم حقيقة هي من وَلَدَتْ لا من شبهت بها، فلا تصير الزوجة أُمًّا بباطل القول وزوره.

ومن البين أن ذلك الخبر واقع موقع التعليل لقوله (مَا هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ)، فهو علة لإبطال التحريم بلفظ الظهار، ولأن كونهن غير أمهاتهم أمر ظاهر معلوم لا يحتاج إلى دليل.

وفي قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ توبيخ وتقريع على قولهم الزور الذى اعتادوا قوله، فـ" هُوَ مَعَ كَوْنِهِ لَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ الْمَرْأَةِ هُوَ قَوْلٌ مُنْكَرٌ، أَيْ قَبِيحٌ لِمَا فِيهِ مِنْ تَعْرِيضِ حُرْمَةِ الْأُمِّ لِتَخَيُّلَاتٍ شَنِيعَةٍ تَخْطُرُ بمخيلة السَّامع عِنْد مَا يَسْمَعُ قَوْلَ الْمُظَاهِرِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. "(١)

ومجيء ذلك الخبر مؤكدا بكل من (إنَّ، واللام، واسمية الجملة) لتأكيد ابتداع ذلك القول وقبحه، وتعدد المؤكدات لزيادة التوبيخ والتقريع.

وفي قوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إخبار عن عفوه –سبحانه وتعالى– وغفرانه لمن فعل ذلك منهم، وهو جاهل بشناعته، وكان قد جارى فيه أسلافه، من غير علم بحقيقتة.

"وَالْعَفُوُّ: الْكَثِيرُ الْعَفْوِ، وَالْعَفْوُ عَدَمَ الْمُؤَاخَذَةِ بِالْفِعْلِ أَيْ: عَفُوٌّ عَنْ قَوْلِهِمْ الَّذِي هُوَ مُنْكَرٌ وَزُورٌ.

وَالْغَفُورُ: الْكَثِيرُ الْغُفْرَانِ، وَالْغُفْرَانُ الصَّفْحُ عَنْ فَاعِلِ فِعْلٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَيْهِ"، وهو مبالغة في تحقق العفو والغفران منه سبحانه.

وكونه سبحانه ﴿عَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ كناية عن عدم مؤاخذة من وقع منه الظهار قبل نزول ذلك الحكم، وجاء مؤكدا بأكثر من مؤكد لمشاكلة التأكيد في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾، إذ أن تأكيد كون ظهارهم بهذا القول (منكرًا وزورا) يستلزم تأكيد العفو والغفران، لئلا يتوهم أو يشك في عدم العفو أوالمغفرة، لتأكيد قبحه وعظم ذنبه.

(١) التحرير والتنوير:ج١٣/٢٨).

وختام الآية بصفة (الغَفُور) تتميم[1] يشير إلى عظيم رحمة الله بعباده، وعفوه عنهم، وغفرانه لهم، خاصة من لم يكن لهم سابق علم بحرمة أو ذنب، كما قوبل بين كل من لفظي: (مُنْكَراً وزُوراً) و(عَفُوٌّ غَفُورٌ) لبيان سعة رحمته –سبحانه وتعالى– وجليل عفوه، رغم شناعة الفعل، ونكران القول فهو (العفو الغفور) الذي وسع عفوه ومغفرته كل من تاب وعمل صالحا ٠

تعقيب:

من خلال ما سبق نستخلص:–

أولًا: أن المقصود بالخبر في فاتحة السورة هو تقرير تشريع للظهار، يبين حكم المولى–سبحانه وتعالى–، حيث يؤكد بطلانه، وعدم الأخذ به، وما يهدف إليه ذلك الحكم من استقرار الأسرة المسلمة، مع ما فيه من الإشارة إلى عناية المولى –عز وجل– ورعايته لشؤون عباده كلها ٠

ثانيًا: دلالة كل من (قد)، والفعل الماضي على تحقق السماع، وتحقق الإجابة مع الإيحاء بحالة التضرع والخضوع التي كانت عليها تلك المرأة في دعائها ومناجاة ربها ٠

ثالثًا: تعظيم شأن كل من الرسول(ﷺ) والمجادلة، بسماع المولى–سبحانه وتعالى– حوارهما، وإجابة دعائها ٠

رابعًا: قصر الأمهات على من كانت منهم الولادة لا غيرهن، وتأكيد قبح تشبه الزوجات بهن في حرمتهن ٠

خامسًا: تنوع الصور والأساليب البلاغية الواردة في الآية بين مجاز مرسل، وكناية، وإيجاز حذف، ومبالغة ، وتغليب، وتكرار، وفصل، وتسهيم، مع تنوع دلالة السمع بين المجاز تارة والحقيقة أخرى ٠

سادسًا: جاءت الفاصلة متمكنة في موضعها مؤكدة لما قبلها ٠

---

(١)التميم هو: أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة" (الإيضاح في علوم البلاغة:ج٣/٢١٢)٠

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبحمده وشكره تتحقق الغايات، والصلاة والسلام على من لا يكتمل العمل إلا بالصلاة والسلام عليه، سيدنا محمد أكمل الخلق وأكرمهم أجمعين.

وبعد

فقد هداني المولى –سبحانه وتعالى– لدراسة أسلوب من أساليب البلاغة العربية في كتابه المعجز، وهو "بلاغة الخبر في فواتح السور، في خطاب سيد البشر(ﷺ)"، حيث ورد في كتاب الله الكثير من الأخبار التي تتعلق بأمور دينية، أو أحوال دنيوية، وقد ورد في فواتح السور التي خاطب بها المولى –سبحانه وتعالى– رسوله الكريم (ﷺ) نوعين من الأخبار:–

النوع الأول: إخبار عن أمور غيبية، سواء كان غيبًا يتعلق بأحوال دنيوية لم تحدث في الزمن الحاضر، كما ورد في فاتحة سورة الفتح على أشهر الأقوال.

أو إخبار عما غاب عن علم النبي (ﷺ) من أحوال الناس وطباعهم، وتوجيهه(ﷺ) إلى كيفية التعامل مع كل نوع، كل على قدر منزلته وتقواه، هو مَقْصِد فاتحة سورة عبس.

كما ورد الإخبار عن غيب أخروي يصور ما أعده الله –عز وجل– لرسوله(ﷺ) من عظيم العطايا، وجليل النعم، وتبشيره بها، تشريفا له، وإكراما لمقامه، وهو مالا يعلم إلا بإخباره–سبحانه وتعالى– عنه لغيبيته، وهو مقصد سورة الكوثر، والتي توافقت مع فاتحة سورة الفتح في أن مقصد كل منهما هو بشارة النبي (ﷺ) بما هو محقق.

أما النوع الآخر: فهو أخبار تقرر تشريعات تستقيم بها حياة الأسرة والجماعة، سواء كانت تشريعات تتعلق بمعاملات مادية، وهو مقصد فاتحة سورة الأنفال، أو إخبار عن تشريعات تنظم العلاقات الإنسانية والأسرية، وتحقق استقرارها، وهو مقصد فاتحة سورة المجادلة.

إلى جانب ما دلت عليه فواتح تلك السور من أسمى آيات التكريم وأعلاها، وهي خطاب المولى –سبحانه وتعالى– لأكرم الأنبياء، محمد (ﷺ) وما يحمل ذلك الخطاب من التشريف والتعظيم وعلو المنزلة.

كما جاءت تلك الأخبار تحوي الكثير من الألفاظ، والأساليب، والصور، والإشارات، والإيحاءات، في تلاحم بديع، يدعم المعاني المقصودة من كل خبر بدقة متناهية، وإيجاز محكم ، ومن ذلك:–

١– دقة النظم الكريم في التعبير عن المقاصد، والأغراض التي يحملها كل خبر، إذ

أن كل لفظ متمكن في موضعه، دال على مقصوده، يأتلف مع مراده، لا يصلح مكانه غيره.

٢- كما اتسم الأسلوب الخبري في فواتح السور مع إيجازه، الدلالة على العديد من المعاني والمقاصد والإشارات التي تلائم مقام كل خبر، بما يحوي من إرساء لقيم سلوكية، واجتماعية، أوتشريعات، من شأنها الحفاظ على وحدة الأسرة والجماعة المسلِّمة.

٣- كما نلحظ العناية بإدخال البشرى والسرور على قلب المسلم؛ لتسعد نفسه ويشعر بعظم نعم المولى -سبحانه- ووجوب شكره، وما في ذلك من الإشارة إلى أهمية العمل على إدخال ما يسر النفوس، ويسعد القلوب، وهو مقصد كل من فاتحة سورة الفتح والكوثر.

٤- كما نجد إرساء لتشريعات هدفها الحفاظ على استقرار الأسرة والجماعة، سواء عن طريق منع التنازع واختلاف الرأي بين أفراد المجتمع، وهو مقصد سورة الأنفال، أو الحفاظ على وحدة الاسرة وتماسكها والذود عنها كل ما يضعفها، وهو مقصد سورة المجادلة.

٥- كما جاء الأسلوب الخبري في فواتح كل من سور الفتح، والكوثر، والمجادلة، مؤكدًا بأكثر من مؤكد، مع صيغة الماضي؛ للدلالة على تحقق الخبر وتأكيد حصوله.

٦- و تآزر مع الأسلوب الخبري الأسلوب الإنشائي في تقرير المعنى وتوضيح مقصده، في كل من سورتي الأنفال وعبس.

٧- كما تلاحم مع الأسلوب الخبري في فوتح تلك السور العديد من الأساليب والنكات البلاغية، منها: التأكيد، والتقديم، والتكرار، والالتفات، والإظهار في موضع الإضمار، والتعريف، والكناية، والاستعارة، والاستفهام، والشرط، والمبالغة، والتعظيم، والاعتراض، والاحتباك، الفصل والوصل، والقصر، المجاز المرسل، وإيجاز الحذف، والتغليب، والتسهيم، والأسلوب الحكيم، والمقابلة، مع تناغم الفواصل، والسجع، في سورتي عبس والكوثر، بما يشير إلى ثراء النظم القرآني بالمعاني والصور والألوان البلاغية.

وأخيرا: وبعد تلك الدراسة في توضيح بلاغة الأسلوب الخبري في فواتح السور المخاطب بها النبي(ﷺ)، والتي أشرت فيها لبعض جوانب البلاغة القرآنية، أرجو من المولى التوفيق والسداد.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

فهرس المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م٠
٢- أحكام القرآن: لابن العربي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، علَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م٠
٣- أدب الكاتب: لابن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة٠
٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت٠
٥- أسرار البلاغة: لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ)، علق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة٠
٦- أسرار ترتيب القرآن: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دارالفضيلة للنشر والتوزيع٠
٧- الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ٠
٨- إعراب القرآن: للنَّحاس (المتوفى: ٣٣٨هـ)، علق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية- بيروت-الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ٠
٩- إعراب القرآن وبيانه: لمحيي الدين درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، الناشر : (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ٠
١٠-الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين: لكمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م٠
١١-أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع٠
١٢-الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني، (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة٠
١٣-البحر المحيط في التفسير: لابن حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت ،الطبعة: ١٤٢٠ هـ٠

١٤-البرهان فى تناسب سور القرآن: لأبي جعفر الغرناطي،(المتوفى: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م٠
١٥-البرهان في علوم القرآن: للزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه٠
١٦-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: لعبدالمتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م٠
١٧-البلاغة العربية: للدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م٠
١٨-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لابن أبي الإصبع العدواني (المتوفى: ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي٠
١٩-تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: للطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ٠
٢٠-التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة٠
٢١- جامع البيان في تأويل القرآن: لابن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م٠
٢٢-جامع الدروس العربية: لمصطفى بن محمد الغلاييني (المتوفى: ١٣٦٤هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة: الثامنة والعشرون، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م٠
٢٣-الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م٠
٢٤-الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م٠
٢٥-حديث مصعب بن عبد الله الزبيري: لأبي القاسم البغوي (المتوفى: ٣١٧هـ)، المحقق: صالح عثمان اللحام، الناشر: الدار العثمانية - الأردن / عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م٠

٢٦-حروف المعاني والصفات: لأبي القاسم الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، المحقق: علي توفيق الحمد، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت٠
٢٧-الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح: لابن أبى الإصبع المصري – تقديم وتحقيق: د/ حفني محمد شرف – مطبعة الرسالة – القاهرة ١٩٦٠م٠
٢٨-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق٠
٢٩- دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م٠
٣٠-روح البيان: لأبي الفداء إسماعيل حقي (المتوفى: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت٠
٣١-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ٠
٣٢-سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م٠
٣٣-السنن الكبرى: لأبي بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) ، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م)٠
٣٤-سورة الواقعة ومنهجها في العقائد (دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم): المؤلف: محمود محمد غريب: من علماء الأزهر الشريف والموجه الديني لشباب جامعة القاهرة الناشر: دار التراث العربي – القاهرة،-١٨٧-١٨٥,١٨٤،الطبعة: الثالثة - ١٤١٨ هـ - ١٩٨٨ م٠
٣٥-شرح العقيدة الواسطية، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، المحقق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤١٩هـ٠
٣٦-الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: لأحمد بن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م٠
٣٧-الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي(المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق:أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م٠

٣٨-صفوة التفاسير: لمحمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م٠
٣٩-الصناعتين: المؤلف: أبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ٠
٤٠-الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة العلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ)، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ٠
٤١-طريق الهداية - مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة: لمحمد يسري، الطبعة: الثانية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م٠
٤٢-عروس الأفراح: لبهاء الدين للسبكي، (ضمن الشروح)، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان٠
٤٣-عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: لشهاب الدين الخفاجي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت٠
٤٤-فتح القدير: للشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ٠
٤٥-الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر٠
٤٦-الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: المؤلف: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م٠
٤٧-فوات الوفيات: لمحمد بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى٠
٤٨-في ظلال القرآن: لسيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ٠
٤٩-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: للزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ٠
٥٠-اللامات: المؤلف: لأبي القاسم الزجاجي (المتوفى: ٣٣٧هـ)، المحقق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م٠
٥١-لسان العرب: لجمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ٠

٥٢- المثل الثائر: لضياء الدين بن الأثير، (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.
٥٣-المجتبى من مشكل إعراب القرآن: المؤلف: أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، عام النشر: ١٤٢٦هـ.
٥٤-المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
٥٥-المسند الصحيح: مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ): المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي.
٥٦-مشكل إعراب القرآن: المؤلف: لمكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥.
٥٧-المشيخة البغدادية للأموي: لابن مَسْلَمَة الدِّمَشْقِيُّ (المتوفى:٦٥٠هـ)، تخريج: الإمام زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ، حققه: كامران سعد الله الدلوي، أشرف عليه وراجعه: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.
٥٨-المصنف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر بن أبي شيبة، (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥٩-المطول: لسعد الدين التفتازاني، ط أحمد كامل، نشر المكتبة الازهرية للتراث، ١٣٣٠هـ.
٦٠-معاني القرآن: للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ،نشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط: الأولى.
٦١- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)،٢٨٣/٥، الناشر: عالم الكتب – بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٦٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان ،الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٦٣- مفاتيح الغيب: للرازي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
٦٤- مفتاح العلوم: للسكاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٦٥-المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
٦٦-المفصل في صنعة الإعراب ، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: د. علي بوملحم، الناشر: مكتبة الهلال — بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.
٦٧-منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى ، تحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة، ط. دار الكتب الشرقية.
٦٨-المنهاج الواضح للبلاغة: لحامد عونى، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
٦٩- مواهب الفتاح: لابن يعقوب المغربي، ضمن (شروح التلخيص)، ط دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان.
٧٠-الموسوعة القرآنية: المؤلف: للأبياري الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: ١٤٠٥هـ).
٧١-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للبقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.